لفظ الأم في القرآن الكريم

- دراسة دلالية -

د . حيدر حسين عبيد

(Mother) utter in the Holy Quran

(semantic study)

PhD. Haider Hussein Obeid

The word mother in the Holly Quran mentioned three times in the context of the human creation in were generally intended to remind human being of what (Allah) has blessed him ,and one of those gifts ,HE created a mother for him that this human being depended in all affairs and care while the mother was called the breeder in accordance with the breastfeeding after birth and the word (Mother) mentioned seven times in the context of the story of Moses while it mentioned nine time for the legal provisions and each time the Quran deals with the utter in a certain word in the search

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذي أنزل أُمَّ الكتاب آيات محكمات، وجعل بحكمته منه أُخر متشابهات، والصلاة والسلام على سيدنا محمد النبي الأمي خير من مضى ومن هو آت، وعلى آله الطاهرين المرتقين ذرى المكرمات، وأصحابه نجوم الهدى في أحلك الظلمات .

أمَّا بعدُ؛ فإنَّ القرآن العظيم بحرٌ لا ساحل له، ولا يدرك غوره، ويستحيل على البشر الإحاطة بعجائبه ومدلولاته وغرائبه، فكلُّ لفظةٍ منه لها في موضعها دلالة ترتبط بالسياق الواردة فيه؛ لتُكوِّنَ لنا بالنتيجة صورة متكاملة ترسمها ريشة الإعجاز، فلو بدلت منه لفظة مكان أخرى لم تؤدِّ ما أدته الأولى من دلالات وإيحاءات، وما تلقيه من ظلال .

وليس أمر الإعجاز البلاغي مقتصرًا على اختيار نوع اللفظة بدقة في محلِّها، بل في تكرار اختيار اللفظة ذاتها في أكثر من موضع؛ لتدلّ في كلِّ مرَّة على معنى ليس في مثيلاتها.

ومن تلك الألفاظ التي تكررت للدلالة على أكثر من معنى لفظ "الأُم"؛ فقد استُعمل أحيانًا للدلالة على الوالدة، في حين ورد في مواضع أُخر للدلالة على غير الوالدة فكان وصفًا لآيات الكتاب الكريم، ومكة المكرمة، كما أضيف فقيل "الأُمِّي" مفردًا في موضعين، كما ورد مجموعًا في مواضع، ولم أجِدْ دراسةً تتناول هذه اللفظة في القرآن الكريم بالدراسة والتحليل وبيان جماليات الأسلوب القرآني في استعمالها في كُلِّ موضع، فجعلتها مدار بحثي هذا .

ولذلك فقد اقتضت طبيعة هذا البحث أن ينقسم على تمهيد وخمسة مباحث وخاتمة.

تضمَّن التمهيد بيان معاني لفظ الأُم في اللغة والاصطلاح، في حين كانت المباحث على النحو الآتي:

- المبحثُ الأَوَّل: لَفْظُ الأُمِّ في سياق خلق الإنسان .
- المبحث الثاني: لَفْظُ الأُمِّ في بعض قَصص الأنبياء .
- المبحث الثالث: لَفْظُ الأُمِّ في الأحكام الشرعية .
- المبحث الرابع : الأُمُّ غير الوالدة .
- المبحث الخامس : الأُمِّي إفرادًا وجمعًا

وقد حاولتُ بيان دلالة ورود هذا اللفظ في كلِّ موضع وعلاقته بالسياق والمعنى العامّ للآية ؛ وصولاً إلى بيان دقة النظم القرآنّي المعجز في تكرار اللفظ ذاته بدلالات مختلفة، وذلك بعد إيراد أقوال من سبق من المفسرين وأئمَّة اللغة، ثُمَّ أُورِدُ التوجيه الذي أراه –والله تعالى أعلم بمراده– .

وصلّى الله على سيدنا محمد النبي الأمِّي وعلى آله وصحبه وسلّم

تمهيد

قال الخليل: (الأمّ هي: الوالدةُ، والجميع: الأمّهات. ويقال: تأمَّم فلانٌ أُمّاً ؛ أي: اتّخذ لنفسه أُمّاً. وتفسير الأمّ في كلّ معانيها: أُمّة؛ لأنّ تأسيسَه من حرفين صحيحين، والهاء فيه أصلية، ولكنّ العرب حذفت تلك الهاء إذا أمنوا اللبس. ويقول بعضهم في تصغير أمّ: أُمَيمة. والصّواب: أميهة، تردّ إلى أصل تأسيسها ومن قال: أميمة صغّرها على لفظها، وهم الذّين يقولون في الجمع : أُمّات)(١)، وأشار في موضع آخر إلى معاني لفظة الأمّ، وهي:

١- **كُلُّ شيءٍ يُضمُّ إليه ما يليه:** قال:(اعلم أنّ كلّ شيء يضمُّ إليه سائر ما يليه فإِن العرب تُسمّي ذلك الشّيْء أُمّاً .. فمن ذلك: أمّ الرأس وهو: الدّماغ)(٢) .

---

(١) كتاب العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ= ٧٨٦م)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال: ٤٣٣/٨ -٤٣٤ .

(٢) المصدر نفسه : ٨/ ٤٢٦ .

٢- **المُتَقَدِّمَةُ** : قال: (وفي الحديث: إنّ أمّ الكتاب هي فاتحة الكتاب؛ لأنّها هي المتقدّمة أمَامَ كلّ سُورةٍ في جميع الصّلوات)(١).

٣- **الشَّيءُ المُحيطُ بغيره**: قال: (وأمّ الرُّمْح: لواؤه، وما لُفّ عليه)(٢) .

وذكر ابن دريد أنَّ معنى "الأَمّ" : القصد، فقال: (أَمَّ يؤمُّ أَمّاً إذا قصد للشّيء. وأَمَّ رَأسه بالعصا يؤمه إذا أصاب أم رَأسه وهي أم الدِّماغ وهي مجتمعه فهو أميم ومأموم والشجة آمة. يقال: أممت الرجل إذا شججته وأممته إذا قصدته)(٣)، ثمَّ ساق ابن دريد فحوى كلام الخليل الذي ذكرناه آنفاً ، ولكنَّنا نلاحظ هنا إشارة من ابن دريد إلى أنَّ لفظة الأُم، قد تكون مشتقة من "الأَمّ" وهو القصد، ولكنَّها كما قلنا مجرَّد إشارة.

في حين نجد أنَّ ابن عُزير السجستاني قد صرَّح بتلك العلة التي أشار اليها ابن دريد، فقال: (وإنما سميت الأم أمَّا لأنَّ الولد يؤمها؛ أي: يقصدها، ويتبعها، يقال: أمّ الشيء يؤمه إذا تبعه وقصده)(٤)، وهذا تعليل لطيف واقعيّ.

ثمَّ ذكر السجستاني لـلأُمِّ معنى آخر وهو الصاحبة ويشير إلى أنَّه فرع عن القصد، فقال: (ويُقال لأهل الرجل : أُمّ مثواه، ومثواه منزله الذي يأوي إليه، والثَّواء الإقامة ؛ وسميت أُمُّ مثوى لأنَّها صاحبة منزله، ويكون قصده ورجوعه إليها)(٥).

وجمع الأزهري المعاني اللغوية للأُمّ، وهي عنده فضلاً عن المعاني السابقة :

---

(١) المصدر نفسه : ٨/ ٤٢٦ .

(٢) المصدر نفسه :٨/ ٤٢٧ .

(٣) جمهرة اللغة : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١ هـ = ٩٣٣ م)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م: مادة (أمم): ١/ ٥٩ .

(٤) معرفة اشتقاق أسماء نطق بها القرآن وجاءت بها السنن والأخبار وتأويل ألفاظ مستعملة: أبو بكر محمد بن عُزَيْرٍ السجستاني رحمه الله(ت: ٣٣٠ هـ = ٩٤١م): تحقيق :د. جميل عبد الله عويضة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ م : ٢٥٥ .

(٥) المصدر نفسه : ٢٥٥ .

١- **الزوج العجوز**: قال: (الأُم: امْرَأَة الرَّجل الْمُسِنّة)(١).

٢- **الأُم**: (الوالدة من كل الحَيوان)(٢).

٣- **الأمر**: قال: (ويُقال: مَا أَمِّي وأَمُّه؟ وَمَا شَكلي وشَكله؟ أَي: مَا أَمْري وأَمْره لبُعده منّي، فلَم يتعرّض لي؟)(٣) .

٤- **الأصل**: قال: (قَالَ ابْن كيسَان: يُقال: أُمٌّ وَهِي الأَصْل، وَمِنْهُم من يَقُول: أُمة؛ وَمِنْهُم من يَقُول: أُمهة)(٤).

٥- قَالَ: (أُم التّنائف: الْمفَازَة الْبعيدَة)(٥).

٦- **الكُلُّ**: قال: (وَعَن ابْن عبّاس: أُم الْكتاب، الْقُرْآن من أَوله إِلَى آخِره)(٦).

٧- **القائم على خدمة غيره**: قال: (وَأخْبرَنا عبد الْملك، عَن الرّبيع، عَن الشَّافِعِي، قَالَ: العربُ تَقول للرجل يَلِي طَعَام الْقَوم وخَدمَتهم: هُو أُمتهم؛ وأَنْشد للشَّنْفرى:

وأُم عِيَال قد شهِدت تَقُوتهم إِذا حَتَرتْهم أَتْفَهت وأَقَلَّت)(٧).

٨- **الجامعة**: قَالَ: (وقَالَ: الفصيح فِي أَعْرَاب قَيس: إِذا قيل: أُم الشَّرّ، فَهِي تَجمع كل شَرّ على وَجه الأَرْض، وَإِذا قيل أُم الْخَير، فَهِي تَجمع كُلّ خَير)(٨).

٩- **معظم الشيء**: قال: (أُمُّ الطَّريق: مُعظمها، إِذا كَانَ طَرِيقا عَظِيما وَحوله طُرق صِغار فالأعظم أُم الطَّرِيق)(٩).

---

(١)تهذيب اللغة : محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠ هـ = ٩٨١م)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م: ١٥/ ٤٥١ .

(٢)المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥١ .

(٣)المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥١ .

(٤)المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥١ .

(٥)المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥٣ .

(٦)المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥٢ .

(٧)تهذيب اللغة : ١٥/ ٤٥٢ .

(٨)المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥٣ .

(٩)المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥٣ .

ولم يزد الجوهري عما قاله من سبقه في معاني الأُم سوى معنى الرئيس، فقال: و(أصل الأُمِّ أُمَّهَةٌ؛ لذلك تجمع على أمهات. وقال **أمهتى خندف و إلياس أبى**

وقال بعضهم: الأمهات للناس، والأمات للبهائم. ورئيسُ القوم: أمهم)[1].

وقد أرجع ابن فارس تلك المعاني التي ذكرها اللغويون للأُمِّ إلى أصلين (وَهِيَ الْأَصْلُ وَالْمَرْجِعُ)[2]، ولكنَّه لم يشرح ذلك شرحاً وافياً .

في حين سرد الزَّبيدي المعاني السابقة ذاتها ولم يورد فيها معنى جديدًا سوى أنه قال: (الأُمُّ: الْمَسْكَنُ، وَمِنْه قَوْله تَعالَى: ﴿فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٌ﴾ [3] ؛أَي: مَسْكَنُه النَّار، وقِيلَ: أُمُّ رَأْسِه هاوِيَةٌ فِيهَا؛ أَي: ساقِطَةٌ)[4]، وسنأتي على مناقشة هذه الآية في موضعها من البحث -إن شاء الله - .

أَمَّا المعنى الاصطلاحي للأُمِّ، فقد قال عنه المناوي: (الأُمُّ: بالضمِّ الوالدة القريبة التي ولدته، والبعيدة التي ولدت من ولدته؛ ولذلك قيل لحواء عليها السلام أُمُّنا وإن كثرت الوسائط) [5]، ثُمَّ عرَّج على المعاني اللُّغوية للأُمِّ بقوله: (وكلُّ من كان أصلًا لوجود شيءٍ، أو تربيته، أو إصلاحه، أو مبدئه أمٌّ، ومن ثمَّ قالوا: أُمُّ الشيء أَصْلُهُ)[6]،

---

[1] الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي :(ت: ٣٩٣ هـ = ١٠٠٣م)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م: مادة (أمم):٥/ ١٨٦٣ .

[2] مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين :(ت:٣٩٥ هـ = ١٠٠٤م) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م:١/ ٢١ .

[3] سورة القارعة، آية: ٩ .

[4] تاج العروس من جواهر القاموس : محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ= ١٧٩٠ م) تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية : مادة (أمم) :٣١/ ٢٣٠ .

[5] التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري المناوي (ت: ١٠٣١ هـ = ١٦٢٢م)، ط١، عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت، القاهرة، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م : ٦٢ .

[6] المرجع نفسه : ٦٢ .

ولعلَّ أَبا البَقاء الكفوي كان أدقّ من المناوي في تحديده المعنى الاصطلاحي للأُمِّ حين قال: (الْأُم: الوالدة حَقِيقَة: وَفِي مَعْنَاهَا كل امْرَأَة رَجَعَ نسبك إِلَيْهَا بِالْولَادَة من جِهَة أَبِيك أَو من جِهَة أمك)[1]؛ لأنَّ الجدّة هي أُمٌّ في المعنى، وإلا فالأُمُّ حقيقةً هي الوالدة .

ولعلَّ الصَّواب في المعاني اللغوية الأخرى ما قاله ابن فارس، فالمعاني الأخرى مردُّها إلى هذين المعنيين؛ أعني: الْأَصْلُ وَالْمَرْجِعُ ، ويُضاف إليهما تأثير الدلالة الاصطلاحية التي لم تبتعد كثيرًا عنهما؛ فأُمُّ الإنسان سُمِّيت بذلك -فيما أُرجِّحه-؛ لأنَّها الأصل الذي خرج منه الإنسان؛ ولأنَّه يؤمّها في حاجاته وأموره، ويتفرع من ذلك الأوصاف الأخرى كالحنوِّ والرحمة .

وفيما يأتي بيان مرجع المعاني اللغوية المذكورة سلفاً إلى المعنيين المذكورين :

١- أمَّا قولهم " كُلُّ شيء يُضمُّ إليه ما يليه" فهذا يعني أنَّ كلَّ ما يليه مرجعه إليه .

٢- وأَمَّا قولهم " المُتقدِّمة "؛ فلأنَّ الأصل متقدِّم على الفرع .

٣- وأَمَّا قولهم "الشيء المحيط بغيره" فلأنَّ الشيء المُحاط فرعٌ من الشيء المحيط به .

٤- وأَمَّا قولهم " وإنما سميت الأم أمًّا لأنَّ الولد يؤمها ؛ أي: يقصدها، ويتبعها" فلأنَّ الفرع يتبع الأصل، وإنَّ مرجعه إليه .

٥- وأَمَّا قولهم "الصاحبة" فلأنَّ صاحبة الدار إليها ترجع شؤونه كلها.

٦- وأَمَّا قولهم" الأُم: امْرَأَة الرَّجل المُسِنَّة" فلعله على التشبيه لها بالأم الحقيقية.

٧- وأَمَّا قولهم " الأمر -وهو بمعنى الشأن-" فالأمر والمرجع واحد .

٨- وأَمَّا قولهم " القائم على خدمة غيره" فإنَّ مرجع المخدوم إلى خادمه، أو هو على التشبيه بالأُم الحقيقية لقيامها على خدمة بنيها .

٩- وأَمَّا قولهم " الجامعة" فلأنَّ كلَّ فرعٍ مرجعه إلى الأصل، فهي جامعةٌ فروعها.

---

[1] الكليات : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي(ت: ١٠٩٤ م = ١٦٨٣م)، تحقيق : عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م: ١٨٧ .

١٠-وأَمَّا قولهم "المسكن"؛ فلأنَّ الإنسان يسكن إلى أمِّه، ولأنَّ مرجع الإنسان وحاجته إليها كحاجته إلى المسكن .

ولستُ بهذا أعني إلغاء المعاني الأخرى فهي موجودة حقيقة، وإنَّما يُستعمل كلٌّ منها بحسب ما يقتضيه المقام، ويتطلّبه السياق، وهذا من دقة اللغة العربية .

وهنا أرى لزاماً عليَّ أنْ أُشير إلى لفظ مرادف للفظ الأُمّ وهو لفظ "الوالدة"، فمعظم المُعجميِّين يذكرونه معنًى للأُمّ -كما مرَّ-، قال الجوهريُّ: (والوالِدُ: الأبُ. والوالِدَةُ: الأمُّ. وهما الوالِدان)[1] .

في حين ذكر ابن فارس المعاني اللغوية التي يرجع إليها أصل هذه اللفظة بقوله : (وَلَدَ الْوَاوُ وَاللَّامُ وَالدَّالُ: أَصْلٌ صَحِيحٌ، وَهُوَ دَلِيلُ النَّجْلِ وَالنَّسْلِ، ثُمَّ يُقَاسُ عَلَيْهِ غَيْرُهُ)[2]، ولم يذهب ابن سيده بعيدًا حين قال: (وَلَدَتْهُ أُمُّه وِلادَةً، وإِلادَةً _ على البَدَلِ - فهي والِدَةٌ، على الفِعْلِ، ووالِدٌ، على النَّسَبِ)[3]، فهو يعني أنَّ "الوالدة" هي التي يقع منها فعل الولادة .

وقد بيَّن الفيومي جمع كُلٍّ من الوالد والوالدة بقوله: (الْوَالِدُ: الْأَبُ وَجَمْعُهُ بِالْوَاوِ وَالنُّونِ، وَالْوَالِدَةُ: الْأُمُّ وَجَمْعُهَا بِالْأَلِفِ وَالتَّاءِ، وَالْوَالِدَانِ الْأَبُ وَالْأُمُّ لِلتَّغْلِيبِ)[4].

ولم أقع على قولٍ يُفرّق بين الأُمّ والوالدة صراحة، ويظهر لي من كلام هؤلاء اللغويِّين أنَّ العلاقة بين الأُمّ والوالدة علاقة عموم وخصوص، فالأُمُّ أعمّ من حيث أنها تطلق على الوالدة التي ولدت الإنسان مباشرة وغير مباشرة ، وعلى المُربية والمرأة

---

[1] الصحاح : مادة (ولد):٢/٥٥٤ .

[2] مقاييس اللغة : ٦/ ١٤٣ .

[3] المحكم والمحيط الأعظم : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦م)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م: مادة(ولد) : ٩/ ٤٢٩ .

[4] المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت: نحو ٧٧٠ هـ = نحو ١٣٦٨م)، المكتبة العلمية، بيروت : ٢/٦٧١ .

الحنون، وكُلّ شيء كان أصلاً لغيره، أو اشتمل عليه، في حين لا تُطلق الوالدة إلا على التي ولدت الإنسان بصورة مباشرة كالأُم، أو غير مباشرة كالجدّة؛ لتضمّن هذه اللفظة فعل الولادة، ولكنّ الأخير مصطلح فقهيّ، لا مصطلح عرفيّ.

وقد ورد لفظ "الأُم" في القرآن الكريم وأريد بها الوالدة سبعاً وعشرين مرة، وذلك في موضوعات عدَّة، هي: وصف خلق الإنسان، وقصة سيدنا موسى، وقصة سيدنا عيسى عليهما السلام، وفي المحرمات من النكاح وأحكام الظِّهار وفي المواريث، وفي الأمر ببرّ الوالدين، وفي وصف أهوال القيامة، بما في ذلك لفظ "الأُمِّي" –نسبةً إلى الأُمّ– الذي ورد ست مرات كما سيأتي –إن شاء الله– .

في حين ورد لفظ الأُم لغير الوالدة سبع مرات .

المبحث الأول: الأُم في سياق خلق الإنسان

ومن ورود "الأُم" بمعنى الوالدة ما جاء في سياق تذكير الإنسان بأصل خلقه، وذلك في ثلاثة مواضع، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَٱللَّهُ أَخۡرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمۡ لَا تَعۡلَمُونَ شَيۡـٔٗا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَ لَعَلَّكُمۡ تَشۡكُرُونَ﴾[1]، قال الطبري: يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُهُ: وَاللَّهُ تَعَالَى أَعْلَمَكُمْ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ مِنْ بَعْدِ مَا أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْقِلُونَ شَيْئًا، فَرَزَقَكُمْ عُقُولًا تَفْقَهُونَ بِهَا، وَتُمَيِّزُونَ بِهَا الْخَيْرَ مِنَ الشَّرِّ، وَبَصَّرَكُمْ بِهَا مَا لَمْ تَكُونُوا تُبْصِرُونَ، وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ الَّذِي تَسْمَعُونَ بِهِ الْأَصْوَاتَ، فَيَفْقَهُ بَعْضُكُمْ عَنْ بَعْضٍ مَا تَتَحَاوَرُونَ بِهِ بَيْنَكُمْ، وَالْأَبْصَارَ الَّتِي تُبْصِرُونَ بِهَا الْأَشْخَاصَ فَتَتَعَارَفُونَ بِهَا وَتُمَيِّزُونَ بِهَا بَعْضًا مِنْ بَعْضٍ. "وَالْأَفْئِدَةَ" يَقُولُ: وَالْقُلُوبَ الَّتِي تَعْرِفُونَ بِهَا الْأَشْيَاءَ فَتَحْفَظُونَهَا وَتُفَكِّرُونَ فَتَفْقَهُونَ بِهَا. "لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ" يَقُولُ:

---

[1] سورة النحل، آية : ٧٨ .

فَعَلْنَا ذَلِكَ بِكُمْ، فَاشْكُرُوا اللَّهَ عَلَى مَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ ذَلِكَ، دُونَ الْآلِهَةِ وَالْأَنْدَادِ، فَجَعَلْتُمْ لَهُ شُرَكَاءَ فِي الشُّكْرِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ فِيمَا أُنْعِمَ بِهِ عَلَيْكُمْ مِنْ نِعَمِهِ شَرِيكٌ)[1].

ويظهر لي أنَّه قال"أُمَّهاتكم" هنا؛ لثلاثة أُمورٍ:

- أوَّلها؛ لأنَّه في مقام تذكير الإنسان بأصل نشأته حين ظهر إلى هذه الدنيا إذ كان لا يعلم شيئًا، والأُم هي الأصل الذي خرج منه .
- وثانيها: لأنَّ الخطاب موجَّه للبالغين العاقلين، الذين كانت لهم أُمَّهات قمن على تربيتهم ورعايتهم، ولم يلدنهم فحسب، ليقل مثلاً والداتكم .
- وثالثها: إنَّ الآية في سياق ذكر نعم الله تعالى على عباده منذ مراحل نشأتهم الأولى فأشار بذكر الأُم إلى أنَّه من نعمه سبحانه فضلاً عن خلق السَّمع والبصر أنَّه جعل لهم من يؤّمونه وهم صغار في حوائجهم وأمورهم .

ومثله قوله تعالى ﴿خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ ثُمَّ جَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلْأَنْعَٰمِ ثَمَٰنِيَةَ أَزْوَٰجٍ يَخْلُقُكُمْ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ خَلْقًا مِّنۢ بَعْدِ خَلْقٍ فِى ظُلُمَٰتٍ ثَلَٰثٍ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَهُ ٱلْمُلْكُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَأَنَّىٰ تُصْرَفُونَ﴾ [2]، فهو أيضًا لتذكير الإنسان بأصل وجوده والأُم هي الأصل، وكذلك بنعمة الأُمِّ، فضلاً عن أنَّ الأُمَّهات هنا لم يلدن بعد لُيسمِّيهنَّ "الوالدات" مثلاً .

وقريب منه قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَٰٓئِرَ ٱلْإِثْمِ وَٱلْفَوَٰحِشَ إِلَّا ٱللَّمَمَ إِنَّ رَبَّكَ وَٰسِعُ ٱلْمَغْفِرَةِ هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِى بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوٓا۟ أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ ٱتَّقَىٰٓ ﴿٣٢﴾﴾ [3]، قال الرَّازي، فخر الدين (الْأَجِنَّةُ هُمُ الَّذِينَ فِي بُطُونِ الْأُمَّهَاتِ، وَبَعْدَ الْخُرُوجِ لَا يُسَمَّى إِلَّا وَلَدًا أَوْ سَقْطًا، فما فائدة قَوْلِهِ تَعَالَى: فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ؟

---

[1] جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ، ٩٢٣م)، تحقيق:أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ - ٢٠٠٠ م: ٢٦٥/١٧ .

[2] سورة الزمر، آية : ٦ .

[3] سورة النجم، آية: ٣٢

نَقُولُ التَّنْبِيهُ عَلَى كَمَالِ الْعِلْمِ وَالْقُدْرَةِ، فَإِنَّ بَطْنَ الْأُمِّ فِي غَايَةِ الظُّلْمَةِ، وَمَنْ عَلِمَ بِحَالِ الْجَنِينِ فِيهَا لَا يَخْفَى عَلَيْهِ مَا ظَهَرَ مِنْ حَالِ الْعِبَادِ)⁽¹⁾.

ويبدو أنَّه سمَّاهنّ هنا "أُمَّهات" ؛ لأمرين :

- أحدهما: لأنَّه في سياق بيان تمام علم الله بأحوال خلق الإنسان جميعها حتى قال"هو أعلم بكم"، فكأنَّه يريد القول: أنا أعلم بأصلكم، فلا تدَّعوا الصَّلاح، ومثال ذلك مستعمل كثيرًا في خطابنا اليوميّ، كأن يقول رجلٌ لصاحبه : أنا من شأني وصفاتي كذا وكذا، فيجيب الآخر : لا تخبرني عنك فأنا أعلم أصلك وفصلك .
- والآخر: إنَّه لم يقل"والداتكم" مثلاً لأنَّه يريد تأكيد إحاطة علمه بكُلِّ مرحلة من مراحل خلق الإنسان، قبل ولادته، إذن أُمهاتهم لم يلدن بعد لَيكُنَّ والدات، أو لكون الخطاب موجهاً إلى عاقلين بالغين مكلَّفين قد بذلت أُمهاتهم في تربيتهم ما بذلن .

وعلى الجانب المقابل لجانب التربية والرعاية الذي مرَّ ذكره، ولمَّا كان الأمر يخصّ الرضاعة فإنَّه سمَّى الأُمَّ والدة، قالَ تعَالَى: ﴿ ۞ وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ ٱلرَّضَاعَةَۚ وَعَلَى ٱلْمَوْلُودِ لَهُۥ رِزْقُهُنَّ وَكِسْوَتُهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِۚ لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَاۚ لَا تُضَآرَّ وَٰلِدَةُۢ بِوَلَدِهَا وَلَا مَوْلُودٌ لَّهُۥ بِوَلَدِهِۦۚ وَعَلَى ٱلْوَارِثِ مِثْلُ ذَٰلِكَۗ فَإِنْ أَرَادَا فِصَالًا عَن تَرَاضٍ مِّنْهُمَا وَتَشَاوُرٍ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَاۗ وَإِنْ أَرَدتُّمْ أَن تَسْتَرْضِعُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِذَا سَلَّمْتُم مَّآ ءَاتَيْتُم بِٱلْمَعْرُوفِۗ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٣﴾ ﴾⁽²⁾، ومعلومٌ أنَّ الرضاعة تبدأ بعد

---

(1) مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ=١٢١٠م)،ط٣، دار إحياء التراث العربي – بيروت، ١٤٢٠ هـ: ٢٧/٢٧١-٢٧٢ .

(2) – سورة البقرة، الآية : ٢٣٣.

الولادة مباشرة، وإنَّ المرأة إنَّما يدرُّ لبنها بعد وضعها لجنينها؛ ولذلك قال"والوالدات"، ولم يقل "والأمهات"، فهنّ لم يقمن بدور التربية والرعاية بعد .

المبحث الثاني: الأمُّ في بعض قصص الأنبياء

وقد ورد في قصَّة سيدنا موسى وسيدنا عيسى-عليهما السلام-، ونبدأُ بقصة سيدنا موسى ﷺ، فقد وردت فيه لفظ "الأُمّ" بمعنى الوالدة سبع مرات، خمسٌ منها في ذكر ولادته وما رافقها من أحداث، وواحدة في عتابه لأخيه هارون ﷺ.

قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ ۖ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِى ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِى وَلَا تَحْزَنِىٓ ۖ إِنَّا رَآدُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴾(١)، قال الطبري بعد إيراده أقوال المفسرين في المدَّة التي كانت بين ولادتها موسى وإلقائها إيَّاه في البحر: (وَأَوْلَى قَوْلٍ قِيلَ فِي ذَلِكَ بِالصَّوَابِ، أَنْ يُقَالَ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى ذِكْرُهُ أَمَرَ أُمَّ مُوسَى أَنْ تُرْضِعَهُ، فَإِذَا خَافَتْ عَلَيْهِ - مِنْ عَدُوِّ اللَّهِ فِرْعَوْنَ وَجُنْدِهِ- أَنْ تُلْقِيَهُ فِي الْيَمِّ. وَجَائِزٌ أَنْ تَكُونَ خَافَتْهُمْ عَلَيْهِ بَعْدَ أَشْهُرٍ مِنْ وِلَادِهَا إِيَّاهُ؛ وَأَيُّ ذَلِكَ كَانَ، فَقَدْ فَعَلَتْ مَا أَوْحَى اللَّهُ إِلَيْهَا فِيهِ، وَلَا خَبَرَ قَامَتْ بِهِ حُجَّةٌ، وَلَا فِطْرَةَ فِي الْعَقْلِ لِبَيَانِ أَيِّ ذَلِكَ كَانَ مِنْ أَيٍّ، فَأَوْلَى الْأَقْوَالِ فِي ذَلِكَ بِالصِّحَّةِ أَنْ يُقَالَ كَمَا قَالَ جَلَّ ثَنَاؤُهُ. وَالْيَمُّ الَّذِي أُمِرَتْ أَنْ تُلْقِيَهُ فِيهِ هُوَ النِّيلُ)(٢)، وقد وصف سيد قطب رحمه الله مشهد تلك الأمِّ بقوله: (هذا هو المشهد الأول في القصة. مشهدُ الأمِّ الحائرة الخائفة القلقة الملهوفة، تتلقى الإيحاء المطمئن المبشر المثبت المريح. وينزل هذا الإيحاء على القلب الواجف المحرور بردًا وسلامًا)(٣).

وهنا يبدو لي أنَّ القرآن الكريم حين استعمل لفظ"الأُم" فإنَّه أراد بها كلَّ ما تحمله تلك الكلمة من دلالات ومعان، إنَّها معاني الحنوّ الشديد، والعطف على المولود الصغير، والرحمة به، والألم لفراقه، والحزن لفقده، والقلق لما قد يصيبه، والوجل من

---

(١)سورة القصص، آية : ٧ .

(٢)تفسير الطبري :١٩/٥٢٠ .

(٣)في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ=١٩٦٦م)، ط١٧، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤١٢ هـ : ٢٦٧٩/٥ .

أعدائه، واللهفة على عودته، ثُمَّ إنَّه طفلٌ رضيع ليس له من يؤّمه سوى أُمِّه، ولا من يعينه سواها، ثُمَّ إنَّ القرآن الكريم لم يقل "والدته مثلا" لأنَّ هذه الكلمة قد تتضمَّن معنى فعل الولادة فحسب، ولكنَّ أمَّ موسى لم تلده لتلقيه مباشرة في النهر، بل بقي في أحضانها مدَّة أرضعته فيها من صدرها؛ وبذلك توطّدت علاقة المحبة وتفاعلت العاطفة وتنامت، وذلك مظنَّة التعلق الشديد، فهي والدةٌ وأمٌّ في الوقت ذاته ..إذن في قوله "أُم" تصوير لحالين: حال الأُم الرءوم، وحال الرضيع الذي ليس له من يؤّمه سوى أُمِّه، ويؤكِّد ذلك أنَّه ألقى الأضواء بعد ذلك على حال أُمِّ موسى ليصفه بدقة تامَّة، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَصۡبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَٰرِغًاۖ إِن كَادَتۡ لَتُبۡدِي بِهِۦ لَوۡلَآ أَن رَّبَطۡنَا عَلَىٰ قَلۡبِهَا لِتَكُونَ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ﴾(١)، عَنْ الزَّجَّاج قَالَ: (المعنى: أصبح فارغاً من كل شيء إلا مِن ذِكْرِ مُوسَى، وقيل: إلا مِنَ الهمِّ بموسى والمعنى واحد)(٢)،وقال التُّسْتَرِي: (أي: فارغاً من ذكر غير الله، اعتماداً على وعد الله، إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ)(٣)، وعلى المعنيين فإنَّ ذلك يدلّ على جمع الهمَّة، ونسيان الشواغل، وكانت نتيجة ذلك، ماذكره تعالى بقوله: ﴿فَرَدَدۡنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَيۡ تَقَرَّ عَيۡنُهَا وَلَا تَحۡزَنَ وَلِتَعۡلَمَ أَنَّ وَعۡدَ ٱللَّهِ حَقّٞ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَهُمۡ لَا يَعۡلَمُونَ﴾(٤).

وقد ورد ذكر الأُمِّ في هذه القصة في سورة طه، قَالَ تَعَالَى: ﴿إِذۡ أَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰٓ أُمِّكَ مَا يُوحَىٰٓ (٣٨) أَنِ ٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلتَّابُوتِ فَٱقۡذِفِيهِ فِي ٱلۡيَمِّ فَلۡيُلۡقِهِ ٱلۡيَمُّ بِٱلسَّاحِلِ يَأۡخُذۡهُ عَدُوّٞ لِّي وَعَدُوّٞ لَّهُۥۚ وَأَلۡقَيۡتُ عَلَيۡكَ مَحَبَّةٗ مِّنِّي وَلِتُصۡنَعَ عَلَىٰ عَيۡنِيٓ (٣٩) إِذۡ تَمۡشِيٓ أُخۡتُكَ فَتَقُولُ هَلۡ أَدُلُّكُمۡ عَلَىٰ مَن يَكۡفُلُهُۥۖ فَرَجَعۡنَٰكَ

---

(١) سورة القصص، آية : ١٠ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١ هـ = ٩٢٣ م)،ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م: ٤/١٣٤ .

(٣) تفسير التستري:أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (ت: ٢٨٣هـ =٨٩٦م): جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣ هـ: ١١٨ .

(٤) سورة القصص، آية : ١٣ .

إِلَىٰٓ أُمِّكَ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ ۚ وَقَتَلْتَ نَفْسًا فَنَجَّيْنَٰكَ مِنَ ٱلْغَمِّ وَفَتَنَّٰكَ فُتُونًا ۚ فَلَبِثْتَ سِنِينَ فِىٓ أَهْلِ مَدْيَنَ ثُمَّ جِئْتَ عَلَىٰ قَدَرٍ يَٰمُوسَىٰ ﴾ (١)، فقد أورد ذكر الأُمِّ هنا لأنَّه في سياق ذكر مننه تعالى على سيدنا موسى ﵇ فكأنَّه يقول له : ومنها أنَّني أعدتك إلى الأصل الذي خرجت منه، الذي تؤمّه في أمورك ، ليقوم على رعايتك وهو أُمك .

كما ورد ذكر الأُمِّ بمعنى الوالدة في قصة سيدنا موسى ﵇ في سياق عتابه لأخيه هارون ﵇ في موضعين، أحدهما في سورة الأعراف، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنۢ بَعْدِىٓ ۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ ۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِ ۚ قَالَ ٱبْنَ أُمَّ إِنَّ ٱلْقَوْمَ ٱسْتَضْعَفُونِى وَكَادُوا۟ يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ ٱلْأَعْدَآءَ وَلَا تَجْعَلْنِى مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾(٢)، والآخر في سورة طه، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ قَالَ يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى) (٣)، وهو على لسان سيدنا هارون ﵇، قال الماوردي: (فيه وجهان: أحدهما: أنه قال ذلك لأنه كان أخاه لأمه . قاله الحسن. والثاني: أنه قال ذلك على عادة العرب استعطافاً بالرحم، كما قال الشاعر:

يا ابْنَ أُمِّي، وَيا شُقَيِّقَ نَفْسِي أَنْتَ خَلَّيْتَنِي لِدَهْرٍ شَدِيدِ)(٤).

وذهب البغوي إلى نحو ما أورده الماوردي، فقال: (وَإِنَّمَا قَالَ ابْنَ أُمَّ وَكَانَ هَارُونُ أَخَاهُ لِأَبِيهِ وَأُمِّهِ لِيُرَقِّقَهُ وَيَسْتَعْطِفَهُ. وَقِيلَ: كَانَ أَخَاهُ لِأُمِّهِ دُونَ أَبِيهِ)(١)، في حين

---

(١) سورة طه، الآيات: ٣٨ – ٤٠ .

(٢) سورة الأعراف، آية : ١٥٠

(٣) سورة طه، آية : ٩٤

(٤) النكت والعيون (تفسير الماوردي): أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت:٤٥٠هـ = ١٠٥٨م).، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت :٢٦٤/٢ .

بسط الزمخشري القول في بيان الغاية البلاغية التأثيرية لهذا التركيب، فقال: (وقيل: كان أخاه لأبيه وأمِّه، فإن صحّ فإنما أضافه إلى الأمِّ، إشارة إلى أنهما من بطن واحد. وذلك أدعى إلى العطف والرقة، وأعظم للحق الواجب؛ ولأنها كانت مؤمنة فاعتدّ بنسبها؛ ولأنها هي التي قاست فيه المخاوف والشدائد فذكره بحقها)[2].

و لعلي أُوافق الزمخشريّ في توجيهه، غير أنّي لا أرى مُسَوِّغاً لتفريق معظم المفسرين بين الغاية من هذا التركيب "يا ابن أُمّ" فيما إذا كان هارون أخاً لموسى من أُمِّه فقط، أو أمِّه وأبيه جميعاً؛ لأنَّه في كلتا الحالتين كان من الممكن أن يُقال "يا أخي" وهو حقًّا أخوه في كلا الحالين، ولكنَّه قال "يا ابن أُمّ" لاستعطاف سيدنا موسى﵇ ؛لأنَّه كان في حال الغضب، والأُم رمزٌ للرحمة والحنو والأناة والعطف والرفق واللين، فذكرها يُثير في النفس تلك المعاني مُجْتَمِعَةً، وذلك أجدر بإطفاء جذوة الغضب التي كانت مستعرةً بين جوانح سيدنا موسى﵇، فضلاً عن أنَّ أُمَّ سيدنا موسى كانت لها خصوصية بما تحملته من مشاقّ ومتاعب بعد ولادتها له .

هذا فضلاً عن أنَّ مناداة هارون لموسى بقوله "يا ابن أُمّ" إن كان الغرض منه – على قول هؤلاء المفسرين– مجرّد تذكيره بذلك فليس كلامًا ذا فائدة، ولكنَّ الفائدة فيما أوردناه .

وقد يكون من معاني مناداة هارون لموسى "يا ابن أُمّ" الإشارة إلى أنَّه إنَّما سكت عن فعل بني إسرائيل رحمةً بهم، وهي رحمة تشبه رحمة الأُمِّ المربية القائمة على شؤون أولادها، إذ من عادة الأُم أن تحرص على وحدة أولادها ووجودهم قربها مهما

---

[1] معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٦هـ= ١٢٢٣م)، تحقيق :عبد الرزاق المهدي،ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠ هـ: ٢/٢٣٦ .

[2] الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ = ١١٤٣م) تحقيق: عبد الرزاق المهدي،دار إحياء التراث العربي، بيروت:٢/١٥٣ .

كلَّفها وكلَّفهم ذلك؛ ولذلك قال: ﴿ إِنِّي خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي ﴾(١).

ومن المواضع التي ورد فيها ذكر الأُم بمعنى الوالدة مواضع قصة سيدنا عيسى ﷺ، وذلك أربع مرات:

– الأولى: وردت في إنكار قوم مريم عليها ولادتها من غير زوج حين جاءتهم بسيدنا عيسى ﷺ بعد ولادتها إياه مباشرة، قال تعالى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ قَالُواْ يَٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَٰٓأُخْتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا﴾(٢)، قال أبو حيان: (لَمَّا اتَّهَمُوهَا بِمَا اتَّهَمُوهَا نَفَوْا عَنْ أَبَوَيْهَا السُّوءَ لِمُنَاسَبَةِ الْوِلَادَةِ، وَلَمْ يَنُصُّوا عَلَى إِثْبَاتِ الصَّلَاحِ وَإِنْ كَانَ نَفْيُ السُّوءِ يُوجِبُ الصَّلَاحَ وَنَفْيُ الْبِغَاءِ يُوجِبُ الْعِفَّةَ لِأَنَّهُمَا بِالنِّسْبَةِ إِلَيْهِمَا نَقِيضَانِ)(٣)، وأشار ابن عادل إلى أنَّ الغاية من تذكيرها بصلاح أبويها هنا الزيادة في التَّوبيخ والتقريع، فقال: (وُوصف أبواها بالصَّلاح؛ وحينئذ يصيرُ التوبيخُ أشدَّ، لأنَّ من كان حال أبويه وأخيه هذا الحال، يكونُ صدور الذَّنبِ منه أفحش)(٤)، ولم يبتعد توجيه أبي السعود عمَّن سبقه حين قال: (هذا تقريرٌ لكون ما جاءت به فِرِّياً منكراً، وتنبيهٌ على أن ارتكابَ الفواحش من أولاد الصالحين أفحشُ)(٥).

وبناءً على ما مرَّ فإنَّه يبدو لي أنَّه أورد ذكر الأُم هنا لما يأتي:

---

(١) سورة طه، آية: ٩٤.

(٢) سورة مريم، الآيتان: ٢٧ – ٢٨.

(٣) البحر المحيط: محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م: ٦/ ١٧٦.

(٤) اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت: بعد ٨٨٠ هـ=بعد١٤٧٥م)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ –١٩٩٨م: ٥٣/١٣.

(٥) إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ= ١٥٧٤ م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٥/ ٢٦٣.

أولاً : التقريع والتوبيخ من خلال التأكيد على أنّ أصول مريم كانت طاهرةً، فالأب رجل صالح، والأُمّ "الأصل" صالحة، فأنَّى يتطرّق لها السّوء؟!، وإذا ما صدر ذلك السوء ممن نشأ في مثل بيتها فهو من نفس ذلك الإنسان الأمَّارة بالسوء، ولا دخل لأمور الوراثة فيه، وحينئذ فهو يدلّ على طوّية خبيثة؛ فلذلك كان أبشع من صدوره ممَّن نشأ في بيئة سيئة؛ لأنَّه معتاد على مشاهدة السوء .

ثانيًا: إنَّه أورد ذكر الأُم؛ لأنَّ التربية للأُمِّ، فهي التي تقوم على شؤون أولادها وتربيهم، فإن كانت صالحة صلح الأبناء، وإن كانت طالحة ساء الأبناء، فالأُم هي الأكثر تأثيرًا في تربية أبنائها، فهي من يقضي أغلب الوقت مع الأبناء ولاسيما في مرحلة النشأة الأولى للأولاد .

– والثانيـــــة :قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًاۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَاۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴾[1]، قال ابن عادل: (وقوله " فَمَنْ "استفهام توبيخ وتقرير، وهو دالٌّ على جواب الشَّرْط بعده عند الجُمْهور. " إِنْ أَرادَ أَن يُهْلِكَ الْمسيحَ ابنَ مَرْيَمَ وأُمَّهُ وَمن في الأَرضِ جَميعاً " وهذه جُمْلَةٌ شرطيَّةٌ قُدِّم فيها الجزاءُ على الشَّرْط، والتَّقْدير : إن أَراد أن يُهْلِكَ المسيحَ ابنَ مَرْيَم وأمَّهُ ومن في الأرض جميعاً فمن الذي يقدر أن يَدْفَعَهُ عن مُرادِه ومَقْدوره. وقوله: " فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئاً "؛أي : فَمَنْ يَمْلِكُ من أَفْعال الله شَيْئاً ، والمُلْكُ هو القُدْرة ؛أي : فمن الذي يَقْدِر على دَفْعِ شَيْءٍ من أَفْعال الله. وقوله " وَمَن فِي الأَرضِ جَميعاً ": يعني: أنَّ عيسى مُشَاكِلٌ من في الأَرْض في القُدْرة والخِلْقَة والتَّركيب وتَغْيير الأحوال والصِّفات،فلما سلّمتم كَوْنَهُ تعالى خَالِقاً للكُلِّ، وَجَبَ أن يكون خَالِقاً لِعيسى. قوله: " وَمن فِي الأَرضِ" من باب عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ؛ حتى يبالغ في

---

[1] سورة المائدة، آية : ١٧.

نفي الإلهيَّة عنهما، فكأنَّه نصَّ عليهما مرَّتين؛ مرَّة بذكْرِهما مُفْرَدين، ومرَّة باندراجهما في العُموم)[1].

وبيَّن برهان الدين البقاعي دلالة ذكر مريم مع عيسى فقال: (ووصفه بما هو في غاية الوضوح في بطلان قولهم لبعده عن رتبة الإلوهية في الحاجة إلى امرأة فقال "ابن مريم"، فهو محتاج إلى كفالتها بما لها من الأمومة. ولما بطل مدعاهم على أتقن منهاج وأخصره، وكان بما دق على بعض الأفهام، أوضحه بقوله: " قل"؛ دالاً على أنَّ المسيح عليه السلام عبد مملوك لله، مسبباً عن كفرهم. " فمن يملك من الله "؛ أي : الملك الذي له الأمر كله. شيئاً "؛ أي: من الأشياء التي يتوهم أنها قد تمنعه مما يريد، بحيث يصير ذلك المملوك أحق به منه ولا ينفذ له فيه تصرف. "إن أراد"؛ أي: الله سبحانه. أن يهلك المسيح". وكرر وصفه بالبنوَّة إيضاحاً للمراد فقال: "ابن مريم")[2] .

ثُمَّ أشار إلى أنَّ المراد من ذكر "أُمه" توكيد المعنى السابق بنفي إلوهية عيسى نفياً تامًّا، فقال: (وأزال الشبهة جداً بقوله : " وأمه "ولما خصهما دليلاً على ضعفهما المستلزم للمراد، عمَّ دلالة على عموم القدرة المستلزم لتمام القهر لكل من يماثلهما، المستلزم لعجز الكل المبعد من رتبة الإلهية، فقال موضحاً للدليل بتسويتهما ببقية المخلوقات : "ومن في الأرض جميعاً " ؛ أي: فمن يملك منعه من ذلك .ولما كان التقدير : فإنَّ ذلك كله لله، يهلكه كيف شاء متى شاء، عطف عليه ما هو أعم منه، فقال معلماً بأنه – مع كونه مالكاً ملكاً – له تمام التصرف : "والله" ؛أي : الملك الأعلى الذي لا شريك له . "ملك السموات" ؛أي :التي بها قيام الأرض . " والأرض وما بينهما" ؛ أي: ما بين النوعين وبين أفرادهما، بما به تمام أمرهما ؛ ثم استأنف قوله دليلاً على ما قبله ونتيجة له : " يخلق ما يشاء " على أي كيفية أراد – كما تقدم أنَّ له

---

[1] اللباب في علوم الكتاب: ٧/ ٢٦٢ .

[2] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ – ١٩٩٥ م: ٢/٤٢٠ .

أنْ يعدم ما يشاء كذلك، فلا عجب في خلقه بشراً من أنثى فقط، لا بواسطة ذكر، حتى يكون سبباً في ضلال من ضل به، ولما دل ذلك على تمام القدرة على المذكور عم فقال: "والله" ؛أي : ذو الجلال والإكرام. "على كل شيء" ؛أي : من ذلك وغيره . " قدير")[1] .

وبناءً على ما مرَّ فإنّي أرى –فضلًا عمّا مرَّ فإنَّه أورد لفظ "الأُم" هنا ؛ إشارة إلى أنَّ عيسى عليه السلام مع كونه ابنًا فإنَّ به حاجة إلى من يؤمّه ليقوم على شؤونه وتربيته وتدبير أموره وهو الأمّ، وبما أنَّ الإله تستحيل عليه الحاجة إلى من يقوم على شؤونه فإنَّ عيسى ليس بإله، إذ الحاجة إلى الآخرين من صفات المخلوق، لا الخالق، هذا من جانب، ومن جانب آخر ليؤكد القرآن الكريم أنَّ عيسى له أصل وهو أُمُّه، والإله يكون خالقاً لكُلّ شيء، من الأصول والفروع، فكيف يكون فرعاً ؟!

وفي السياق نفسه – أعني سياق نفي إلوهية عيسى وأُمه عليهما السلام – قَالَ تَعَالَىٰ:

﴿مَّا ٱلۡمَسِيحُ ٱبۡنُ مَرۡيَمَ إِلَّا رَسُولٞ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِ ٱلرُّسُلُ وَأُمُّهُۥ صِدِّيقَةٞۖ كَانَا يَأۡكُلَانِ ٱلطَّعَامَۗ ٱنظُرۡ كَيۡفَ نُبَيِّنُ لَهُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ ثُمَّ ٱنظُرۡ أَنَّىٰ يُؤۡفَكُونَ﴾ [2]، قال الطبري: (وهذا خَبرٌ من الله تعالى ذكره، احتجاجًا لنبيِّه محمد صلى الله عليه وسلم على فِرَق النصارى في قولهم في المسيح. يقول= مكذِّبا لليعقوبية في قِيلهم:"هو الله" والآخرين في قيلهم:"هو ابن الله" =: ليس القول كما قال هؤلاء الكفرة في المسيح، ولكنه ابن مريم ولدته ولادةَ الأمهات أبناءَهنّ، وذلك من صفة البشر لا من صفة خالق البشر)[3].

وفي الآية ردٌّ على من اتخذوا من معجزاته عليه السلام دليلاً وذريعة لعبادته، قال الزَّجّاج: (أي إِبراؤه الأكمه والأبرص وإتيانه بالآيات المعجزات ليس بأنه إِله، إِنما أتى بالآيات كما أتى موسى بالآيات، وكما أتى إِبراهيم بالآيات(وأُمُّه صِدِّيقَةٌ) .أي مبالغة

---

[1] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٤٢٠/٢ .

[2] سورة المائدة، آية : ٧٥ .

[3] جامع البيان في تأويل آي القرآن: ٤٨٤/١٠ .

في الصدق والتصديق، وإنما وقع عليها صِدِّيقَةٌ لأنه أرسل إليها جبريل، فقال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَصَدَّقَتۡ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ﴾(١) ، وصِدِّيق فِعيلٌ من أبنية المبالغة كما تقول فلان سِكيت أي مبالغ في السكوت. وقوله: (كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَام) .هذا احتجاج بين، أي إنما يعيشان بالغذاءِ كما يعيش سائر الآدميين.فكيف يَكُون إلَهاً من لا يقيمه إلا أكل الطعام.وقوله: (انْظُرْ كَيْفَ نُبيِّن لَهُم الْآيَاتِ) .أي العلامات الواضحة.(ثُمَّ انْظُرْ) أي انظر بعد البيان.(أَنَّى يُؤْفَكُونَ) .أي من أين يصرَفُونَ عَن الحق الواضح)(٢).

والفرق بين هذه الآية وما قبلها أنَّ الأولى كانت ردّاً على من يجعلونهما إلهين، في حين ردَّت هذه الآية على هؤلاء وعلى الذين يطعنون في مريم؛ ولذلك جاء محتوى الآية يُبيِّن فضلهما ومنزلتهما نافيًا عنهما في الوقت ذاته صفة الإلوهية، وما قيل في الآية السابقة من الحكمة في ذكر الأم يقال هنا، فالغاية بيان احتياج عيسى لمن يؤّمه ليقوم على تربيته وتدبير شؤونه، وإذا دقّقنا النظر في هذه الآية لوجدنا أنَّ السياق فيها يتطلب ذلك، فقد قال تعالى بعدها ﴿قُلۡ أَتَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا نَفۡعٗاۚ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ﴾(٣)، فذكر هنا الضرّ والنفع، والمخلوق الذي له أمٌّ فإنَّه يرجع إليها في دفع الضرر عنه، وجلب النفع له ؛ ولذلك ذكر الأُم، وكلُّ ذلك بمجموعه يصبّ في نفي إلوهية عيسى وأُمِّه نفيًا قاطعاً ، ومثله أيضاً قوله تعالى: ﴿وَإِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ءَأَنتَ قُلۡتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيۡنِ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ قَالَ سُبۡحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِيٓ أَنۡ أَقُولَ مَا لَيۡسَ لِي بِحَقٍّۚ إِن كُنتُ قُلۡتُهُۥ فَقَدۡ عَلِمۡتَهُۥۚ تَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِي وَلَآ أَعۡلَمُ مَا فِي نَفۡسِكَۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلۡغُيُوبِ﴾ (٤) .

---

(١) سورة التحريم، من الآية : ١٢ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه : ٢/١٩٦-١٩٧ .

(٣) سورة المائدة، آية : ٧٦ .

(٤) سورة المائدة، آية : ١١٦ .

غير أنَّنا نجد لفظ الأمّ قد جاء أيضاً في غير هذا السياق، وإنَّما في سياق تكريم سيدنا عيسى وأُمه –عليهما السلام–، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً وَءَاوَيْنَٰهُمَآ إِلَىٰ رَبْوَةٍ ذَاتِ قَرَارٍ وَمَعِينٍ﴾⁽¹⁾، قال ابن قتيبة الدِّينَوري: (أي: عَلَمًا ودليلاً. و" الرُّبوة " الارتفاع. وكلُّ شيء ارتفع أو زاد، فقد رَبا، ومنه الرِّبا في البيع. "ذَاتِ قَرارٍ": يُستَقَرُّ بها للعمارة." وَمَعِينٍ ": ماء ظاهر. يقال: هو مَفعُول من العين. كأنّ أصلَه مَعيُون. كما هو يقال: ثوب مَخِيط، وبُرٌّ مَكِيل)⁽²⁾.

ومّا يُلاحظ هنا أنَّ القرآن الكريم هنا وحَّد وصفهما بالآية، مع أنَّ سيدنا عيسى عليه السلام وحده آية، وأُمه أيضًا آية مستقلة، قال الطبري: (ولم يقل: آيتين؛ لأنَّ معناه: وجعلنا جميعهما آية. إذ كان المعنى واحدًا فيما جُعلا فيه للخلق عبرة. ولو كان مرادًا الخبرُ عن كل واحد منهما على انفراده، بأنَّه جُعل للخلق عبرة؛ لقيل: وجعلنا ابن مريم وأمَّه آيتين؛ لأنَّه قد كان في كل واحد منهما لهم عبرة. وذلك أنَّ مريم ولدت من غير رجل، ونطق ابنها فتكلم في المهد صبيًّا، فكان في كل واحد منهما للناس آية)⁽³⁾.

ولم يذهب الزَّجَّاج بعيدًا عن توجيه الطبري إذ نراه يقول: (ولم يقل آيتين؛ لأنَّ المعنى فيهما آيَة واحدة؛ ولو قيل آيَتَيْنِ لجاز لأنهما قد كان في كل واحد منهما ما لم يكن في ذَكَرٍ وَلَا أنثى، مِنْ أَن مَرْيَمَ وَلَدَتْ من غير فَحْل؛ ولأنَّ عيسى روح من اللَّه ألقاه إلى مَرْيَم ولم يكن هذا في ولدٍ قط)⁽⁴⁾.

⁽¹⁾ سورة المؤمنون، آية : ٥٠ .

⁽²⁾ غريب القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ= ٨٨٩م)، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية ١٣٩٨ هـ – ١٩٧٨ م: ٢٩٧ .

⁽³⁾ جامع البيان في تأويل آي القرآن: ١٧١/٦ .

⁽⁴⁾ معاني القرآن للزجاج : ١٤/٤ .

ولعل أبا حيّان الأندلسي كان أدقّ منهما حيث قال: (وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ؛أَيْ: قِصَّتَهُمَا، وَهِيَ آيَةٌ عُظْمَى بِمَجْمُوعِهِمَا وَهِيَ آيَاتٌ مَعَ التَّفْصِيلِ، وَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ حُذِفَ من الأول آيَةٌ لِدَلَالَةِ الثَّانِي أَيْ وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ آيَةً وَأُمَّهُ آيَةً)(١).

وذهب زين الدين الرازي(٢)، والزركشي(٣)، إلى نحو ذلك .

ولم يختلف توجيه البقاعي لهذه الآية غير أنَّه بسط القول فيها، مشيرًا إلى دلالة لفظ الأُمِّ هنا فيقول: ("وجعلنا"؛أي: بعظمتنا . "ابن مريم" ؛نسبة إليها تحقيقاً لكونه لا أب له،وكونه بشراً محمولاً في البطن مولوداً لا يصلح لرتبة الإلهية ؛ وزاد في حقيق ذلك بقوله : " وأمه ")(٤) إذن لفظ الأُم هنا كان زيادة في تحقيق عبودية عيسى، وتأكيدًا في نفي الإلوهية عنه ؛ وذلك بالتصريح بأنَّ عيسى كان له أُم؛أي: أصل، والإله لا أصل له؛ لأنه خالق كلّ شيء، وكذلك بالإشارة إلى أنَّه كان له من يؤمَّه "الأُم" والإله مستغنٍ بذاته عمَّن سواه .

وقد أشار أبو السعود إلى علّة تقديم سيدنا عيسى بالذكر على أُمِّه في هذه الآية، فقال: (وتقديمُه عليه الصَّلاةُ والسَّلامُ لأصالتِه فيما ذُكر من كونِه آيةً كما أنَّ تقديمَ أمِّه في قولِه تعالى ﴿وَجَعَلْنَـٰهَا وَٱبْنَهَآ ءَايَةً لِّلْعَـٰلَمِينَ﴾ (٥) لأصالتِها فيما

---

(١) البحر المحيط : ٦/ ٣٧٧.

(٢) ينظر: أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل: زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: بعد ٦٦٦ هـ = بعد ١٢٦٨ م)، تحقيق: د. عبدالرحمن بن إبراهيم المطرودى،ط١، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م:٢٧١ .

(٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ = ١٣٩٢م)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ١٣٧٦ هـ – ١٩٥٧ م: ١٥٦/١ .

(٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور :٢٠٤/٥ .

(٥) سورة الأنبياء، من الآية : ٩١ .

ُنسب إليها من الإحصان والنَّفخِ)(١)، يشير إلى أنَّ السياق في هذه الآية يتركّز على سيدنا عيسى عليه السلام، وفي تلك الآية يتركّز على تبرئة سيدتنا مريم عليها السلام .

ويبدو لي أنَّ القرآن الكريم قد أورد "أُمَّه" هنا-فضلاً عن التأكيد على عبودية عيسى ونفي إلوهيته- للإشارة إلى تكريم عيسى عليه السلام، فكأنَّ القرآن الكريم يقول له :إنَّنا كرَّمنا أمَّك لأجلك، لقيامها على تربيتك وتدبير شؤونك ؛ ولأنَّها الأصل الطاهر الذي أنجبك، ولتوضيح ذلك أقول: لو قصد إنسانٌ آخر مصطحباً أُمَّه في أمرٍ ما، فأجاب المقصود: أكرمتُ أمَّك وأكرمتك؛ لكان التكريم في الأصل للأُم، فإنْ قال:أكرمتُ كَ وأمَّك، فإنَّ أصل التكريم يكون للابن، وللأمِّ على سبيل التبعية، هذا من جانب، ومن جانب آخر لم ترد هنا لفظة "الوالدة" ؛ لأنَّ المقام ليس في ذكر أصل وجود عيسى وولادته الذي كان معجزة، وإنَّما السياق في تكريم الأنبياء، فمن ذلك :

أ -تكريم الله نوحاً عليه السلام وإحاطته بالرعاية والعناية وإنجائه، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ فَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ أَنِ ٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ ۖ وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِذَا ٱسْتَوَيْتَ أَنتَ وَمَن مَّعَكَ عَلَى ٱلْفُلْكِ فَقُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى نَجَّىٰنَا مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٨﴾ وَقُل رَّبِّ أَنزِلْنِى مُنزَلًا مُّبَارَكًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ ﴾(٢)، فها هنا نفهم أنَّ الله تعالى إنَّما نجَّى أتباع نوح لإيمانهم به، وهذا تكريم عظيم لذلك النبي الكريم عليه السلام .

ب- ومنها تكريمه سبحانه موسى وهارون، وإيتائهما المعجزات، وإنجائهما من عدوهما، قَالَ تَعَالَىٰ:﴿ ثُمَّ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ وَأَخَاهُ هَٰرُونَ بِـَٔايَٰتِنَا وَسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴿٤٥﴾ ﴾(٣).

وتجدر الإشارة إلى أنَّه قد ورد تسمية الأمِّ بـ"الوالدة" في قصة سيدنا عيسى عليه السلام، وذلك في موضعين:

---

(١)إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم:٦/١٣٧ .

(٢)سورة المؤمنون، الآيات: ٢٧-٢٩ .

(٣)سورة المؤمنون، آية : ٤٥ .

-أحدهما: قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿إِذۡ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبۡنَ مَرۡيَمَ ٱذۡكُرۡ نِعۡمَتِي عَلَيۡكَ وَعَلَىٰ وَٰلِدَتِكَ إِذۡ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ ٱلۡقُدُسِ تُكَلِّمُ ٱلنَّاسَ فِي ٱلۡمَهۡدِ وَكَهۡلٗاۖ وَإِذۡ عَلَّمۡتُكَ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَۖ وَإِذۡ تَخۡلُقُ مِنَ ٱلطِّينِ كَهَيۡـَٔةِ ٱلطَّيۡرِ بِإِذۡنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيۡرَۢا بِإِذۡنِيۖ وَتُبۡرِئُ ٱلۡأَكۡمَهَ وَٱلۡأَبۡرَصَ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ تُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ بِإِذۡنِيۖ وَإِذۡ كَفَفۡتُ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ عَنكَ إِذۡ جِئۡتَهُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ فَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ مِنۡهُمۡ إِنۡ هَٰذَآ إِلَّا سِحۡرٞ مُّبِينٞ﴾(١)، قال البقاعي: ("إذ قال الله" ؛أي : المستجمع لصفات الكمال . "يا عيسى"، ثم بينه بما هو الحق من نسبه فقال : " ابن مريم " . ولمَّا كان ذلك يوم الجمع الأكبر والإحاطة بجميع الخلائق وأحوالهم في حركاتهم وسكناتهم، وكان الحمد هو الإحاطة بأوصاف الكمال، أمره بذكر حمده سبحانه على نعمته عنده فقال : "اذكر نعمتي عليك "؛أي : في خاصَّة نفسك، وذكر ما يدل للعاقل على أنه عبد مربوب، فقال : " وعلى والدتك " إلى آخره مشيراً إلى أنه أوجده من غير أب، فأراحه ممَّا يجب للآباء من الحقوق وما يورثون أبناءهم من اقتداء أو اهتداء وإقامة بحقوق أمِّه، فأقدره - وهو في المهد - على الشهادة لها بالبراءة والحصانة والعفاف، وكل نعمة أنعمها سبحانه عليه ﷺ فهي نعمة أمِّه ديناً ودنيا)(٢) .

ولم أجد من المفسرين من أشار إلى سبب وصف مريم عليها السلام هنا بالوالدة، دون الأم،ولعلَّي لا أبعد عن الصواب إنْ زعمت أنَّ السبب هنا السياق فهو في بيان نعم الله على عيسى وما أيده به من المعجزات، ومنها:

١-تأييده بجبريل عليه السلام .

٢-تكليمه النَّاس وهو في المهد .

٣-تعليمه الكتاب والحكمة .

٤-تعليمه التوراة والإنجيل .

---

(١)سورة المائدة، آية : ١١٠.

(٢)نظم الدرر في تناسب الآيات والسور : ٢/562 .

٥-نفخ الروح في الطين، وجعله من ذوات الأرواح .

٦-إحياء الموتى .

فناسب ذلك الأسلوب –أسلوب سرد المعجزات– أن يبدأها بأصلها وأولها، وهي ولادته من غير أب فلذلك قال "ووالدتك"؛ لأنَّ هذه اللفظة تتضمَّن فعل الولادة الذي كان معجزةً بحدِّ ذاته .

وفي موضع آخر نجد القرآن الكريم يورد لفظة الوالدة، لا "الأُم" على لسان سيدنا عيسى عليه السلام، فقال: ﴿وَبَرًّا بِوَالِدَتِي وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّارًا شَقِيًّا ﴾[١]، قال الزمخشري: (جَعَلَ ذَاتَهُ بَرًّا لِفَرْطِ بِرِّهِ، وَنَصَبَهُ بِفِعْلٍ فِي مَعْنَى أَوْصَانِي وَهُوَ كَلَّفَنِي؛ لِأَنَّ أَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَكَلَّفَنِي بِهَا وَاحِدٌ)[٢].

هذا هو المعنى العامّ للآية، أمَّا الغاية من قوله "والدتي" فقد تناولها بالبيان غير واحد من المفسرين، على النحو الآتي :

١- قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: لَمَّا قَالَ" وَبَرًّا بِوَالِدَتِي" وَلَمْ يَقُلْ بِوَالِدَيَّ عُلِمَ أَنَّهُ شي مِنْ جِهَةِ اللَّهِ تَعَالَى[٣].

٢- وأخرج ابن أبي حاتم عن نوف (وبرا بوالدتي) أي ليس لي أب[٤].

٣- قال الشوكاني: (وَبَرًّا بِوَالِدَتِي مَعْطُوفٌ عَلَى مُبَارَكًا، وَاقْتَصَرَ عَلَى الْبِرِّ بِوَالِدَتِهِ لِأَنَّهُ قَدْ عُلِمَ فِي تِلْكَ الْحَالِ أَنَّهُ لَمْ يَكُنْ لَهُ أَبٌ)[١] .

---

[١] سورة مريم، آية : ٣٢

[٢] الكشاف: ١٧/٣ .

[٣] الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ= ١٢٧٣م).، تحقيق: هشام سمير البخاري، ط١، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م:١٠٣/١١ .

[٤] تفسير القرآن العظيم : أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧ هـ = ٩٣٨ م) تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط٣، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ: ٧/ ٢٤٠٨ .

ويظهر لي أنَّ الغاية من قوله "والدتي" هنا أمران:

– أحدهما: ما أشار إليه المفسرون من تبرئة أمِّه عليها السلام، فهو يؤكِّد أنَّ مَنْ وَلَدَه أُمُّه وحدها على سبيل المعجزة، ولو كان له والدٌ لذكره وأوجب على نفسه برَّه؛ لأنَّه نبيّ والأنبياء يلتزمون كلَّ ما أوجبه الله .

– والآخر: إنَّ سيدنا عيسى عليه السلام قد قال ذلك بعد ولادته مباشرة، إذ كان حديث الولادة، وذلك من جملة آيات، قَالَ تَعَالَى: ﴿فَأَتَتْ بِهِۦ قَوْمَهَا تَحْمِلُهُۥ ۖ قَالُوا۟ يَـٰمَرْيَمُ لَقَدْ جِئْتِ شَيْـًٔا فَرِيًّا ﴿٢٧﴾ يَـٰٓأُخْتَ هَـٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمْرَأَ سَوْءٍ وَمَا كَانَتْ أُمُّكِ بَغِيًّا ﴿٢٨﴾ فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ ۖ قَالُوا۟ كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِى ٱلْمَهْدِ صَبِيًّا ﴿٢٩﴾ قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾﴾(٢)، فلم تكن والدته الكريمة قد ربَّته بعد، ولا قامت على خدمته، وإنَّما حصل منها فعل الولادة فحسب .

المبحث الثالث: الأم في الأحكام الشرعية

ورد لفظ الأُم في القُرآن الكريم في سياق ذكر طائفة من الأحكام الشَّرعية، هي:

١– **المُحَرَّمات من النِّكاح :** حين ذكر القرآن الكريم المُحرّمات اللواتي يحرم على الرجل الزواج بهنَّ، أوردها بلفظ "الأُم"، قَالَ تَعَالَى: ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَٰتُكُمْ وَعَمَّـٰتُكُمْ وَخَـٰلَـٰتُكُمْ وَبَنَاتُ ٱلْأَخِ وَبَنَاتُ ٱلْأُخْتِ وَأُمَّهَـٰتُكُمُ

---

(١) فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ=١٨٣٤م)، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ١٤١٤ هـ: ٣/٣٩٢ .

(٢) سورة مريم، الآيات: ٢٧ – ٣٣ .

ٱلَّٰتِيٓ أَرۡضَعۡنَكُمۡ وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ وَأُمَّهَٰتُ نِسَآئِكُمۡ وَرَبَٰٓئِبُكُمُ ٱلَّٰتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَآئِكُمُ ٱلَّٰتِي دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمۡ تَكُونُواْ دَخَلۡتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡكُمۡ وَحَلَٰٓئِلُ أَبۡنَآئِكُمُ ٱلَّذِينَ مِنۡ أَصۡلَٰبِكُمۡ وَأَن تَجۡمَعُواْ بَيۡنَ ٱلۡأُخۡتَيۡنِ إِلَّا مَا قَدۡ سَلَفَۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿٢٣﴾﴾ (١)؛ وذلك فيما يبدو لي لأنَّ السياق في ذكر المُحرمات على الرجل الذي بلغ مبلغ الزواج، فلا ريب أنَّ أُمَّه قد قامت على رعايته لسنوات، فهي ليست بوالدةٍ فحسب، وإنَّما كانت أُمه التي يؤّمها في حاجاته لسنوات طويلة، هذا من جانب .

ومن جانب آخر فإنَّ القرآن الكريم يذكّر الرجل بأنَّ "الأصل الأُم" التي خرج من بين أحشائها، وكانت عاطفتها تجاهه عاطفة أمومة مجردة مِنْ كُلِّ الرغبات الدنيئة لا ينبغي عليه تحويل تلك العلاقة الطاهرة إلى علاقة شهوة جسدية بعد أن كانت علاقة طاهرة .

ومن الآيات التيأوردت المحرمات من النِّكاح ما ورد فيها تحريم أزواج النَّبيِّ وبيان حرمتهنّ ومنزلتهنّ، قَالَ تعَالَى: ﴿ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا﴾(٢)، قال الطبري: (يَقُولُ تَعَالَى ذِكْرُه: النَّبِيُّ مُحَمَّدٌ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ، يَقُولُ: أَحَقُّ بِالْمُؤْمِنِينَ بِهِ مِنْ أَنْفُسِهِمْ أَنْ يَحْكُمَ فِيهِمْ بِمَا يَشَاءُ مِنْ حُكْمٍ فَيَجُوزُ ذَلِكَ عَلَيْهِمْ وَحُرْمَةُ أَزْوَاجِهِ حُرْمَةُ أُمَّهَاتِهِمْ عَلَيْهِمْ، فِي أَنَّهُنَّ يَحْرُمُ عَلَيْهِنَّ نِكَاحُهُنَّ مِنْ بَعْدِ وَفَاتِهِ، كَمَا يَحْرُمُ عَلَيْهِمْ نِكَاحُ أُمَّهَاتِهِمْ. وَبِنَحْوِ الَّذِي قُلْنَا فِي ذَلِكَ قَالَ أَهْلُ التَّأْوِيلِ)(٣).

---

(١) سورة النساء، الآية: ٢٣.

(٢) الأحزاب: ٦

(٣) جامع البيان في تأويل القرآن: ٢٠/٢٠٨ .

وأشار البغوي إلى دلالة الأُم هنا فقال : (وهنَّ أُمَّهات المؤمنين في تعظيم حقهنّ، وتحريم نكاحهنّ على التأبيد، لا في النظر إليهنَّ، والخلوة بهنّ فإنَّه حرامٌ في حقهن كما في حق الأجانب)(١).

واسترسل الزمخشري استرسالاً رائعًا في بيان ما حوته الآية من معانٍ فقال: ("النَّبِيُّ أَوْلَى بِالْمُؤْمِنِينَ" : في كُلِّ شيء من أمور الدين والدنيا . "مِنْ أَنفُسِهِمْ" : ولهذا أطلق ولم يقيد، فيجب عليهم أن يكون أحبّ إليهم من أنفسهم، وحكمه أنفذ عليهم من حكمها، وحقه آثر لديهم من حقوقها، وشفقتهم عليه أقدم من شفقتهم عليها، وأن يبذلوها دونه ويجعلوها فداءه إذا أعضل خطب، ووقاءه إذا لقحت حرب، وأن لا يتبعوا ما تدعوهم إليه نفوسهم ولا ما تصرفهم عنه، ويتبعوا كل ما دعاهم إليه رسول الله ﷺ وصرفهم عنه ؛ لأنّ كل ما دعا إليه فهو إرشاد لهم إلى نيل النجاة والظفر بسعادة الدارين وما صرفهم عنه، فأخذ بحجزهم لئلا يتهافتوا فيما يرمي بهم إلى الشقاوة وعذاب النار. أو هو أولى بهم، على معنى أنه أرأف بهم وأعطف عليهم وأنفع لهم . "وَأَزْوَاجُهُ أُمَّهَاتُهُمْ" : تشبيه لهنّ بالأمهات في بعض الأحكام، وهو وجوب تعظيمهنّ واحترامهنّ، وتحريم نكاحهنّ : قال الله تعالى : ﴿وَلَا أَن تَنكِحُوا أَزْوَاجَهُ مِن بَعْدِهِ أَبَدًا﴾(٢) .

ويرى الباحث أنَّ اللمسات الجمالية هنا تكمن في جانبين:

- أحدهما : في حذف أداة التشبيه- وهذا ما يُسمَّى بالتشبيه البليغ*- ؛ لأَنَّ معنى "وأزواجه أُمهاتهم؛ أي : مثل أمهاتهم ((٣))، إذ يظهر لي أنَّ حذف أداة التشبيه هنا كان أَبلغ في تأدية المعنى؛ لأنه لو قال :" مِثْلُ أُمَّهاتهم " لكان المشبه من وجه دون وجه،

---

(١) تفسير البغوي : ٣/٥٠٧ .

(٢) الكشاف: ٣/ ٥٣١، والآية من سورة الأحزاب، من الآية: ٥٣ .

التشبيه البليغُ ما حُذفت منهُ الأَداةُ وَجهُ الشبه، وهو أرقى أنواع التشبيه بلاغة . جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت: ١٣٦٢هـ= ١٩٤٣م)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت: ٢٤٢ .

(٣) التبيان في إعراب القرآن:أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري(ت: ٦١٦هـ=١٢١٩ م)، تحقيق:علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر:٢ /١٩١ .

ولكنه حين قال أمهاتهم، جعلهن في الذهن أمهات، فقطع الطريق أمام مُجرد التفكير بشيءٍ مِمَّا حُرِّم ؛ ولبيان ذلك نقول : لو أنَّ رجلا سأل آخر : لم لا تتزوج فلانة ؟ فقال : هي مثل أمِّي، أو مثل أختي ؛ لفهم السائل أنَّه لا يوجد هناك ما يُحَرِّم ذلك، ولكن ذلك الرجل ليس في نفسه بواعث على الزواج من تلك المرأة، ويحتمل أنَّه بمجرد المحاولة معه لإقناعه يقتنع بالزواج منها .

ولكن : إذا قال في إجابته : هي أُمِّي، أو أختي، فإنَّه يؤكد بأنَّ من المحال الزواج منها، وهو بذلك يقطع الطريق أمامنا بالتفكير في ذلك أو محاولة إقناعه، بل يشعرنا بالذنب لأننا كلمناه في ذلك، والآية توحي بهذا المعنى .

- والآخر: في لفظ الأُم نفسه، فكأنَّ القرآن الكريم يريد القول:

أ- إنَّ لدى أزواج النبيِّ ﷺ من الحُنُوِّ والعطف على المؤمنين مثل ما لدى أُمَّهاتهم تمامًا .

ب- إنَّ أُمَّهات المؤمنين يجب أن يكُنَّ مرجعًا " يُؤَمُّ " بعد رسول الله ﷺ ؛ لكونهنّ أقرب الناس إليه، وأكثرهم اطِّلاعًا على أمور رسول الله ﷺ وسيرته .

ت- إنَّه يجب على المؤمنين جميعًا تعظيم أُمَّهات المؤمنين تعظيمهم لأُمَّهاتهم تمامًا، والنظر إليهنَّ نظرة هيبة واحترام

٢- **تحريم الظِّهار** : ومن المواضع التي ورد فيها ذكر الأُمِّ وأريد الوالدة آيات تحريم الظِّهار[١]، وذلك في موضعين :

-**أحدهما:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿مَّا جَعَلَ ٱللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِۦۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَٰجَكُمُ ٱلَّٰٓـِٔي تُظَٰهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَٰتِكُمْۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَآءَكُمْ أَبْنَآءَكُمْۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَٰهِكُمْۖ وَٱللَّهُ يَقُولُ ٱلْحَقَّ وَهُوَ

---

[١] والظِّهار الَّذي تحرم به الْمرأة مأْخوذ من الظّهر وذلك أن تقول لها أُنت عليّ كظهر أُمِّي فكانت تطلق في الْجاهليَّة بذلك. **غريب الحديث: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ= ٨٨٩م)، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ:٢٠٩ .**

يَهۡدِي ٱلسَّبِيلَ ﴾ (١)، قال الزَّجَّاج : (وأكثر ما جاء في التفسير أنَّ عبد اللَّه بن خَطَل كانت قُرَيْش تسميه ذا القلبين، وروي أنَّه قال: إنَّ لي قلبين أفهم بكل واحدٍ منهما أكثر مما يَفْهم محمدٌ، فأكذبه اللَّه ﷻ فقال: " مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ" .ثم قَرَنَ بهذا الكلام ما يقوله المشركونَ وغيرهم مما لا حقيقة له فقال ﷻ:" وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُم اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ" . ومعناه أنه قال لها: أَنتِ عليَّ كظَهرِ أُمِّي، فأعلم اللَّه ﷻ أَنَّ الزوجة لَا تَكونُ أُمًّا، وكانتِ الجَاهِلية تُطَلِّقُ بهذا الكلام، فأنزل اللَّه كفارة الظهار في سورة المجادلة)(٢).

ويظهر لي أنَّه أورد ها هنا بلفظ الأم لأنَّه في مقام الرّد على اعتقادات وتشريعات المشركين بالردود العقلية، وبيان ذلك :

أ- إنَّه ذكر أنَّه لا يصح عقلاً ، ولم يقع خلقاً أن يكون للرجل قلبين في جوفه .

ب- إنَّه ذكر أنَّ الدَّعيِّ ليس بابن وهذا معلوم عقلاً .

ت- كما أكّد أنَّ الزوجة التي يظاهر منها زوجها ليست بأُمِّه؛ لأنَّ الأُمَّ حقيقةً هي الأصل الذي يخرج منه الإنسان، وهي من يقوم على تربيته لسنوات، فكيف تتحول الزوج إلى أُم ؟! قطعًا إنَّ ذلك لا يصح عقلاً وواقعاً .

- **والآخـــر** :قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يُظَٰهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَآئِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَٰتِهِمۡۖ إِنۡ أُمَّهَٰتُهُمۡ إِلَّا ٱلَّٰٓـِٔي وَلَدۡنَهُمۡۚ وَإِنَّهُمۡ لَيَقُولُونَ مُنكَرٗا مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ وَزُورٗاۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٞ ﴾ (٣)، وهي أشدّ وضوحًا من الآية السابقة في استعمال الرّد العقلي المستند على البداهة، إذ من البداهة أنَّ الأُمَّ هي التي ولدت الإنسان، وهنا لابدَّ لي من الإشارة إلى أنَّ المُظاهرين لم يقصدوا قطعًا -عند وقوع الظهار - أنَّ أزواجهم هُنَّ أمَّهاتهم ولكنَّهم أرادوا تشبيههنّ بالأُمَّهات في التحريم طبعًا وشرعًا، ولكنَّ القرآن الكريم أراد بيان بشاعة عملهم وسوء اختيارهم لألفاظهم وتلاعبهم بالشرع الشريف واستهانتهم بالعلاقة الزوجية، فكأنَّه يقول لهم : ليس

---

(١) سورة الأحزاب، آية : ٤.

(٢) معاني القرآن وإعرابه:٤/٢١٤ .

(٣) سورة المجادلة، آية : ٢ .

الأمر إليكم تجعلون من تشاءون أُمًّا ومن تشاءون زوجًا، بل الأمر فيه لله الذي خلق الواقع الذي ترونه، وشرع لكم ما يُنظِّم حياتكم .

٣- الأكل من بيوت الغير : ومن ذلك ما ورد في بيان جواز الأكل من طائفة من البيوت دون استئذان، قال تعالى: ﴿ لَّيۡسَ عَلَى ٱلۡأَعۡمَىٰ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡأَعۡرَجِ حَرَجٞ وَلَا عَلَى ٱلۡمَرِيضِ حَرَجٞ وَلَا عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَن تَأۡكُلُواْ مِنۢ بُيُوتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ ءَابَآئِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أُمَّهَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ إِخۡوَٰنِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخَوَٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَعۡمَٰمِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ عَمَّٰتِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ أَخۡوَٰلِكُمۡ أَوۡ بُيُوتِ خَٰلَٰتِكُمۡ أَوۡ مَا مَلَكۡتُم مَّفَاتِحَهُۥٓ أَوۡ صَدِيقِكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ جُنَاحٌ أَن تَأۡكُلُواْ جَمِيعًا أَوۡ أَشۡتَاتٗاۚ فَإِذَا دَخَلۡتُم بُيُوتٗا فَسَلِّمُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ تَحِيَّةٗ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِ مُبَٰرَكَةٗ طَيِّبَةٗۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِ لَعَلَّكُمۡ تَعۡقِلُونَ ﴾(١)، عن ابن عباس رضي الله عنهما: (ثمَّ نزل حِين تحرجوا من المواكلة مَعَ بعضهم بَعْضًا مَخَافَةَ الظُّلم لما أنزل قَوْله: ﴿ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ ﴾(٢) بالظلم وخافوا من ذَلِك، فَرخص لَهُم المواكلة مَعَ بعضهم بَعْضًا فَقَالَ: لَيْسَ على من أكل مَعَ الْأَعْمَى مأثم . وَلَيْسَ على من أكل مَعَ الْأَعْرَج مأثم . وَلَيْسَ على من أكل مَعَ الْمَرِيض مأثم . وَلَا على أَنفُسِكُم مأثم . أَن تَأْكُلُوا من بُيُوت أَبْنَائِكُم بِغَيْر إِذن بِالْعَدْلِ والإنصاف. أَو بيُوت آبَائِكُم أَو بيُوت أُمَّهَاتِكُم، أَو بيُوت إِخْوَانِكُم: من كل وَجه. أَو بيُوت أَخَوَاتِكُم من كل وَجه. أَو بيُوت إِخْوَة آبائكم. أَو بيُوت أَخَوات آبائكم. أَو بيُوت إِخْوَة أُمَّهَاتكُم . أَو بيوت أَخَوات أُمَّهَاتكُم أَو مَا ملكتم مَفَاتِحه": خزائن مَا عنْدكُم من المَال، يَعْنِي: العبيد وَالْإِمَاء . " أَو صَدِيقكُم فِي الْخلطَة . نزل " أَو صديقكم" فِي مَالك بن زين والْحَارث بن عمار وَكَانَا صديقين . " لَيْسَ عَلَيْكُم مأثم .أَن تَأْكُلُوا مُجْتَمعين

---

(١) سورة النور، آية : ٦١.

(٢) سورة البقرة، من الآية : ١٨٨.

بِالْعَدْلِ والإنصاف، أو مُتَفَرِّقين . وَدخل فِي هَذِه الْآيَة الْأَعْمى والأعرج وَالْمرِيض، وَغير ذَلِك)[1].

وأشار سيد قطب إلى وضوح ألفاظ هذه الآية ودقتها في التعبير، فقال: (ولأنَّ الآية آية تشريع، فإننا نلحظ فيها دقة الأداء اللفظي والترتيب الموضوعي، والصياغة التي لا تدع مجالاً للشك والغموض. كما نلمح فيها ترتيب القرابات. فهي تبدأ ببيوت الأبناء والأزواج ولا تذكرهم.بل تقول الآية: « مِنْ بُيُوتِكُمْ» فيدخل فيها بيت الابن وبيت الزوج، فبيت الابن بيت لأبيه، وبيت الزوج بيت لزوجته، وتليها بيوت الآباء، فبيوت الأمهات. فبيوت الإخوة، فبيوت الأخوات. فبيوت الأعمام، فبيوت العمات. فبيوت الأخوال، فبيوت الخالات.. ويضاف إلى هذه القرابات الخازن على مال الرجل فله أن يأكل مما يملك مفاتحه بالمعروف ولا يزيد على حاجة طعامه. ويلحق بها بيوت الأصدقاء. ليلحق صلتهم بصلة القرابة. عند عدم التأذي والضرر. فقد يسر الأصدقاء أن يأكل أصدقاؤهم من طعامهم بدون استئذان. فإذا انتهى من بيان البيوت التي يجوز الأكل منها، بين الحالة التي يجوز عليها الأكل: « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا جَمِيعاً أَوْ أَشْتَاتاً » فقد كان من عادات بعضهم في الجاهلية ألا يأكل طعامًا على انفراد، فإن لم يجد من يؤاكله عاف الطعام! فرفع الله هذا الحرج المتكلف، ورد الأمر إلى بساطته بلا تعقيد، وأباح أن يأكلوا أفرادًا أو جماعات)[2].

وما قيل في الآيات السابقة يقال هنا فالخطاب موجَّه للبالغين الذين تحرجوا من الأكل من تلك البيوت، فكأنَّه يقول : وكذلك أمَّهاتكم اللواتي قُمْنَ على تربيتكم، اللواتي كنَّ لكم مرجعًا طوال سنوات تؤمّونهنّ في جميع شؤونكم، فقد بذلن في رعايتكم ما بذلن، فلا شكَّ أنّهنّ يَطِبْنَ نفسًا عند الأكل من بيوتهنَّ، هذا فضلاً عن أنَّ القرآن

---

[1] تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ينسب: لعبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – (ت: ٦٨هـ): جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى **(ت: ٨١٧ هـ = ١٤١٥م)**، دار الكتب العلمية، بيروت: ٢٩٩ .

[2] في ظلال القرآن: ٤/ ٢٥٣٣ – ٢٥٣٤ .

الكريم حين بدأ بسرد ذوي القرابات فبدأ بالآباء، فكان من المناسب أن يذكر الأمهات ؛ لأنَّ الأم تقابل الأب، وكذلك نلاحظ أنَّه بدأ بالأصول والأُم هي الأصل لغةً كما مرَّ .

٤- **برّ الوالدين** : أمَّا ما ورد في سياق وجوب طاعة الوالدين وتوقيرهما ومعاملتهما بالحسنى، فمنه قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴾ ⁽¹⁾، قال الزَّجَّاج : (ضَعْفاً على ضَعْفٍ؛أي: لَزِمَها لحملها إياه أن ضَعُفَتْ مَرةً بَعْدَ مرة)⁽²⁾، وكان الزمخشري أوضح في بيانه للآية بقوله: (أي حَمَلَتْهُ تَهِنُ وَهْناً عَلَى وَهْنٍ، كقولك رجع عوداً على يده، بمعنى ؛ يعود عوداً على يده، وهو في موضع الحال . والمعنى : أنها تضعف ضعفاً فوق ضعف؛ أي: يتزايد ضعفها ويتضاعف ؛ لأنّ الحمل كلما ازداد وعظم، ازدادت ثقلاً وضعفاً) ⁽³⁾.

فذكرها هنا بلفظ "الأُم" ولم يقل الوالدة؛ لأنَّ الإنسان المخاطب بهذا الخطاب هو الإنسان البالغ الراشد، والآية في سياق ذكر ما بذلته الوالدة من جهد في شهور حملها، ثّم قيامها على رعاية ولدها ورضاعه لمدَّة عامين، وكان إذ ذاك صغيرًا غير قادر على شيء من شؤونه وليس له من يؤّمه سوى أمَّه ؛ إذن هي "الأُم" وليست بوالدة فحسب، فهي التي سهرت على رعايته سنوات وسنوات، كما أنَّ في الآية إشارة إلى ما تحمله لفظة الأُم من حنان وعطف ورقّة، وموضوع الآية يتطلّب ذلك؛ لأنَّه للأمر بالبّر الذي يتطلب بيان مقدار ما قدَّمته الأم لولدها ؛ لمجازاتها بما تستحقه .

وأوضح من هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ إِحْسَٰنًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُۥ وَفِصَٰلُهُۥ ثَلَٰثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ إِنِّى تُبْتُ

---

[1] سورة لقمان، آية : ١٤.

[2] معاني القرآن وإعرابه : ١٩٦/٤ .

[3] الكشاف: ٣/٥٠٠-٥٠١ .

إِلَيۡكَ وَإِنِّي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ ﴾ (١) ، وفي معنى الأَشُدّ قال الفراء: (وسمعتُ بعض المشيخة يذكر بإسناد لَهُ فِي الأشد: ثلاث وثلاثون، وفي الاستواء: أربعون. وسمعت أن الأَشُدّ فِي غير هذا الموضع: ثماني عشرة. والأول أشبه بالصواب؛ لأنَّ الأربعين أقرب فِي النسق إلى ثلاث وثلاثين ومنها إلى ثماني عشرة، ألا ترى أَنَّكَ تَقُولُ: أخذت عامة المال أو كلّه، فيكون أحسن من أن تَقُولُ: أخذت أقلّ المال أو كلّه)(٢).

في حين كان للجصاص رأيٌ آخر في معنى الأَشُدّ، فهو عنده يدلّ على أمرٍ معنويّ في الإنسان، قال : (الْأَشُدُّ لَيْسَ لَهُ مِقْدَارٌ مَعْلُومٌ فِي الْعَادَةِ لَا يَزِيدُ عَلَيْهِ وَلَا يَنْقُصُ مِنْهُ، وَقَدْ يَخْتَلِفُ أَحْوَالُ النَّاسِ فِيهِ فَيَبْلُغُ بَعْضُهُمْ الْأَشُدَّ فِي مُدَّةٍ لَا يَبْلُغُهُ غَيْرُهُ فِي مِثْلِهَا؛ لِأَنَّهُ إنْ كَانَ بُلُوغُ الْأَشُدِّ هُوَ اجْتِمَاعُ الرَّأْيِ وَاللُّبِّ بَعْدَ الْحُلُمِ فَذَلِكَ مُخْتَلِفٌ فِي الْعَادَةِ، وَإِنْ كَانَ بُلُوغُهُ اجْتِمَاعَ الْقُوَى وَكَمَالَ الْجِسْمِ فَهُوَ مُخْتَلِفٌ أَيْضًا، وَكُلُّ مَا كَانَ حُكْمُهُ مَبْنِيًّا عَلَى الْعَادَاتِ فَغَيْرُ مُمْكِنٍ الْقَطْعُ بِهِ عَلَى وَقْتٍ لَا يَتَجَاوَزُهُ وَلَا يَقْصُرُ عَنْهُ، إلَّا بِتَوْقِيفٍ أَوْ إجْمَاعٍ)(٣).

إذن فقد زادت هذه الآية على التي قبلها الإشارة إلى تربية الأُمِّ ولدها حتى يبلغ أشدَّه، والأَشُدّ سواء كان الثلاثين من العمر أو حتى الأربعين، أو على الأقلّ بلوغ الحُلُم فإنَّ هذا يدلّ على مدى الجهد العظيم الذي بذلته الأُم على مرّ تلك السنين من رعاية وتربية وعناية وسهرٍ للّيالي الطويلة ؛ ولذلك- فيما يبدو لي- قال"أُمه" ولم يقل والدته؛ لأنَّ الوالدة فيه إشارة إلى حدوث فعل الولادة فحسب، ويؤكّد ما ذهبتُ إليه قول الإمام فخر الدين الرازي في بيان عظمة حقّ الأُم: (دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى أَنَّ حَقَّ الْأُمِّ أَعْظَمُ؛ لِأَنَّهُ تَعَالَى قَالَ أَوَّلًا: " وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ حُسْناً " فَذَكَرَهُمَا مَعًا، ثُمَّ خَصَّ

---

(١) سورة الأحقاف، آية : ١٥.

(٢) معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت: ٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين،ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر: ٥٢/٣ .

(٣) أحكام القرآن :أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ=٩٨٠م)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م:٢٦٣/٣ .

الْأُمَّ بِالذِّكْرِ، فَقَالَ: حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهاً وَوَضَعَتْهُ كُرْهاً"، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ حَقَّهَا أَعْظَمُ وَأَنَّ وُصُولَ الْمَشَاقِّ إِلَيْهَا بِسَبَبِ الْوَلَدِ أَكْثَرُ، وَالْأَخْبَارُ مَذْكُورَةٌ فِي هَذَا الْبَابِ)(١)، وقوله أيضًا في بيان مقدار قيام الأُم على رعاية شؤون ابنها، وكونها المرجع الذي يؤمّه: (اعْلَمْ أَنَّ قَوْلَهُ حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَدُلُّ عَلَى أَنَّ الْإِنْسَانَ كَالْمُحْتَاجِ إِلَى مُرَاعَاةِ الْوَالِدَيْنِ لَهُ إِلَى قَرِيبٍ مِنْ هَذِهِ الْمُدَّةِ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْعَقْلَ كَالنَّاقِصِ، فَلَا بُدَّ لَهُ مِنْ رِعَايَةِ الْأَبَوَيْنِ عَلَى رِعَايَةِ الْمَصَالِحِ وَدَفْعِ الْآفَاتِ، وَفِيهِ تَنْبِيهٌ عَلَى أَنَّ نِعَمَ الْوَالِدَيْنِ عَلَى الْوَلَدِ بَعْدَ دُخُولِهِ فِي الْوُجُودِ تَمْتَدُّ إِلَى هَذِهِ الْمُدَّةِ الطَّوِيلَةِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى أَنَّ نِعَمَ الْوَالِدَيْنِ كَأَنَّهُ يَخْرُجُ عَنْ وُسْعِ الْإِنْسَانِ مُكَافَأَتُهُمَا إِلَّا بِالدُّعَاءِ وَالذِّكْرِ الْجَمِيلِ)(٢).

٥- **قسمة الإرث** : ومن الآيات التي ورد فيها لفظ "الأم" بمعنى الوالدة، ما ورد في سياق تقسيم الإرث، قَالَ تَعَالَى: ﴿يُوصِيكُمُ ٱللَّهُ فِىٓ أَوْلَـٰدِكُمْ ۖ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۚ فَإِن كُنَّ نِسَآءً فَوْقَ ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ ۖ وَإِن كَانَتْ وَٰحِدَةً فَلَهَا ٱلنِّصْفُ ۚ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا ٱلسُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِن كَانَ لَهُۥ وَلَدٌ ۚ فَإِن لَّمْ يَكُن لَّهُۥ وَلَدٌ وَوَرِثَهُۥٓ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ ٱلثُّلُثُ ۚ فَإِن كَانَ لَهُۥٓ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ ٱلسُّدُسُ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِى بِهَآ أَوْ دَيْنٍ ۗ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا ۚ فَرِيضَةً مِّنَ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(٣)،

ويبدو لي أنّه قال هنا "لأُمِّه" ولم يقل "لوالدته"؛ لأنّه يتكلم عن ميراث إنسانٍ قد بلغ مبلغ الرجال، إلى حدٍّ أنّه قال"ولم يكن له ولد"، إذن الشخص المقصود كان من الممكن أن يتزوج ويكون له ولد، وهذا الوصف لا ينطبق إلا على إنسان -على أقلّ تقدير- قد بلغ الحلم؛ ممَّا يعني أنَّ أمَّه قد قدَّمت له كلّ ما يمكن أن تقدّمه والدةٌ لولدها، وأُمٌّ لابنها من الرعاية والعناية والتربية حتى بلغ أشدَّه، ولم يقتصر عملها على ولادته فحسب؛ ولذلك قال : أُمه .

---

(١) التفسير الكبير : ١٥/٢٨ .

(٢) التفسير الكبير : ١٨/٢٨ .

(٣) سورة النساء، آية : ١١.

٦- **الأُمُّ في أهوال القيامة :** وقد ورد ذكر لفظ الأُم الوالدة في ذكر أهوال القيامة مَرة واحدة، قَالَ تَعَالَى واصفاً القيامة وأهوالها، ﴿ فَإِذَا جَآءَتِ ٱلصَّآخَّةُ (٣٣) يَوۡمَ يَفِرُّ ٱلۡمَرۡءُ مِنۡ أَخِيهِ (٣٤) وَأُمِّهِۦ وَأَبِيهِ (٣٥) وَصَٰحِبَتِهِۦ وَبَنِيهِ (٣٦) لِكُلِّ ٱمۡرِيٕٖ مِّنۡهُمۡ يَوۡمَئِذٖ شَأۡنٞ يُغۡنِيهِ (٣٧) وُجُوهٞ يَوۡمَئِذٖ مُّسۡفِرَةٞ (٣٨) ضَاحِكَةٞ مُّسۡتَبۡشِرَةٞ (٣٩) وَوُجُوهٞ يَوۡمَئِذٍ عَلَيۡهَا غَبَرَةٞ (٤٠) تَرۡهَقُهَا قَتَرَةٌ (٤١) أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَفَرَةُ ٱلۡفَجَرَةُ ﴾[١]، قال البقاعي: (" فإذا جاءت "؛ أي: كانت ووجدت؛ لأن كل ما هو كائن كأنه لاقيك وجاء إليك . " الصآخة" ؛ أي: الصرخة العظيمة التي يبالغ في إسماع الأسماع بها حتى كاد تصمها لشدتها، وكأنها تطعن فيها لقوة وقعتها وعظيم وجبتها، وتضطر الآذان إلى أن تصيخ إليها أي تسمع، وهي من أسماء القيامة، وأصل الصخ : الضرب بشيء صلب على مصمت . ولما كان وصفها بما يقع فيها أهيب، قال مبدلاً من " إذا " ما يدل على جوابها من نحو : اشتغل كلٌّ بنفسه ولم يكن عنده فراغ ما لغيره: " يوم يفر المرء "؛ أي: الذي هو أعظم الخلق مروءة: ولما كان السياق للفرار، قدم أدناهم رتبة في الحب والذب فأدناهم على سبيل الترقي، وأخر الأوجب في ذلك فالأوجب، بخلاف ما في "سأل" كما مضى فقال: "من أخيه"؛ لأنه يألفه صغيراً، وقد يركن إليه كبيراً مع طول الصحبة، وشدة القرب في القرابة، فيكون عنده في غاية العزة)[٢] .

ثُمَّ بين الغاية من ذكر الأم هنا، وعلى وفق هذا الترتيب فقال: (ولمَّا كانت الأمُّ مشاركة له في الإلف، ويلزم من حمايتها أكثر مما يلزم الأخ وهو لها آلف وإليها أحنّ وعليها أرق وأعطف قال " وأمه ". ولما كان الأب أعظم منها في الإلف؛ لأنَّه أقرب في النوع، وللولد عليه من العاطفة لما له من مزيد النفع أكثر ممن قبله قال: "وأبيه". ولما كانت الزوجة التي هي أهل لأن تصحب ألصق بالفؤاد وأعرق في الوداد، وكان الإنسان أذب عنها عند الاشتداد، قال: "وصاحبته"، ولعله أفردها إشارة إلى أنها عنده

---

[١] سورة عبس، الآيات : ٣٣ – ٤٢ .

[٢] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٨/٣٣٢ .

في الدرجة العليا من المودة بحيث لا يألف غيرها. ولما كان للوالد إلى الولد من المحبة والعاطفة والإباحة بالسر والمشاورة في الأمر ما ليس لغيره، ولذلك يضيع عليه رزقه وعمره قال: "وبنيه" وإن اجتمع فيها الصغير الذي هو عليه أشفق والكبير الذي هو في قلبه أجل وفي عينه أنبل ومن بينهما من الذكر والأنثى)(١).

إذن فالإنسان حينئذ يفرّ من الفروع والأصول يوم القيامة والأُم أصلٌ، وفيه إشارة إلى شدَّة ما يُصيب الإنسان آنذاك من الهول؛ وذلك لأن الإنسان في الدنيا إذا ما اشتاق إلى الحنان والسكون والدّعة والرحمة به فإنَّ أوَّل من يؤمّه أُمَّه، فإذا كان يفرّ منها بعد كلّ ما ذكرناه فإنَّ ذلك يعني عظمة ما يشغله يوم القيامة من الهول .

المبحث الرابع الأُم غير الوالِدة

وأعني به كلّ لفظ للأُمِّ ورد في القرآن الكريم وأُريد به غير الوالدة؛ أي: كلُّ ما سُمِّي أُمَّاً مجازًا، وهو في ثلاثة موضوعات؛ أولها: آيات القرآن الكريم "أُمَّ الكتاب"، وثانيها : مكة المكرمة "أُمَّ القرى"، وثالثها: النَّار .

أوَّلاً : أُمُّ الكتاب :

ونبدأ بآيات الكتاب الكريم، إذ ورد وصفها بالأُمِّ في ثلاثة مواضع :

أ- قَالَ تَعَالَى: ﴿ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَـٰبَ مِنْهُ ءَايَـٰتٌ مُّحْكَمَـٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَـٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَـٰبِهَـٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَـٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴾(٢)، قال الطبري: (عنى ب"الكتاب"، القرآن. وأمَّا قوله:"منه آيات محكمات" فإنَّه يعني: من الكتاب آيات. يعني ب"الآيات" آيات القرآن.وأمَّا"المحكمات"، فإنَّهنَّ اللواتي قد أحكمن بالبيان والتفصيل، وأثبتت حججهن وأدلتهن على ما جُعلن أدلة عليه من حلال وحرام، ووعد ووعيد، وثواب وعقاب، وأمر وزجر، وخبر ومثل، وعظة وعِبر، وما أشبه ذلك.ثم

---

(١) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور:٣٣٢/٨ -٣٣٣ .

(٢) سورة آل عمران، آية : ٧ .

وصف جل ثناؤه: هؤلاء "الآيات المحكمات"، بأنَّهنَّ: "هُنّ أم الكتاب" يعني بذلك: أنَّهنَّ أصل الكتاب الذي فيه عماد الدين والفرائض والحدود، وسائر ما بالخلق إليه الحاجة من أمر دينهم، وما كلفوا من الفرائض في عاجلهم وآجلهم. وإنما سماهن "أم الكتاب"، لأنَّهنَّ معظم الكتاب، وموضع مَفزَع أهله عند الحاجة إليه، وكذلك تفعل العرب، تسمي الجامعَ معظم الشيء "أمًّا" له. فتسمى راية القوم التي تجمعهم في العساكر: "أُمهم"، والمدبر معظم أمر القرية والبلدة: "أمها")(١).

وذكر ابن أبي حاتم الرازي ثلاثة أوجه لمعنى "أُم الكتاب"، هي(٢):

- **الوجه الأول:** قَالَ أَبُو فَاخِتَةَ: فَوَاتِحُ السُّوَرِ، وَقَالَ يَحْيَى: الْفَرَائِضُ وَالأَمْرُ وَالنَّهْيُ وَالْحَلالُ.
- **الْوَجْهُ الثَّانِي:** عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ فِي قَوْلِهِ: هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ يَقُولُ: أَصْلُ الْكِتَابِ، وَإِنَّمَا سَمَّاهُنَّ أُمَّ الْكِتَابِ لأَنَّهُنَّ مَكْتُوبَاتٌ فِي جَمِيعِ الْكُتُبِ.
- **الْوَجْهُ الثَّالِثُ:** عَنْ مُقَاتِلِ بْنِ حَيَّانَ: فِي هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَإِنَّمَا قَالَ: هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ لأَنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِ دِينٍ إِلا يَرْضَى بِهِنَّ.

ولم يذهب الزمخشري بعيدًا عن هذه الأقوال الثلاثة حين قال: (أي: أصل الكتاب تُحمل المتشابهات عليها، وتُرد إليها)(٣).

ووضَّح فخر الدين الرَّازي المقصود من كلام الزمخشري حين طرح سؤالين وأجاب عليهما، فقال: (السُّؤَالُ الْأَوَّلُ: مَا مَعْنَى كَوْنِ الْمُحْكَمِ أُمًّا لِلْمُتَشَابِهِ؟ الْجَوَابُ: الْأُمُّ فِي حَقِيقَةِ اللُّغَةِ الْأَصْلُ الَّذِي مِنْهُ يَكُونُ الشَّيْءُ، فَلَمَّا كَانَتِ الْمُحْكَمَاتُ مَفْهُومَةً بِذَوَاتِهَا، وَالْمُتَشَابِهَاتُ إِنَّمَا تَصِيرُ مَفْهُومَةً بِإِعَانَةِ الْمُحْكَمَاتِ، لَا جَرَمَ صَارَتِ الْمُحْكَمَاتُ كَالْأُمِّ للمتشابهات وقيل: أن ما ثَبَتَتْ إِلَى أَنْ يَبْعَثَهَا، فَعَبَّرَ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى بِلَفْظِ الْأَبِ مِنْ جِهَةِ أَنَّ الْأَبَ هُوَ الَّذِي حَصَلَ مِنْهُ تَكْوِينُ الِابْنِ، ثُمَّ وَقَعَ فِي التَّرْجَمَةِ مَا

---

(١) جامع البيان في تأويل القرآن: ٦/١٧٠ .

(٢) تفسير القرآن العظيم : ٢/ ٥٩٣ .

(٣) الكشاف : ١/ ٣٦٥ .

أَوْهَمَ الْأُبُوَّةَ الْوَاقِعَةَ مِنْ جِهَةِ الْوِلَادَةِ، فَكَانَ قَوْلُهُ ﴿مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ﴾[1]، مُحْكَمًا؛ لِأَنَّ مَعْنَاهُ مُتَأَكِّدٌ بِالدَّلَائِلِ الْعَقْلِيَّةِ الْقَطْعِيَّةِ، وَكَانَ قَوْلُهُ: عِيسَى رُوحُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ مِنَ الْمُتَشَابِهَاتِ الَّتِي يَجِبُ رَدُّهَا إِلَى ذَلِكَ الْمُحْكَمِ.

السُّؤَالُ الثَّانِي: لِمَ قَالَ: أُمُّ الْكِتَابِ وَلَمْ يَقُلْ أُمَّهَاتُ الْكِتَابِ؟

الْجَوَابُ: أَنَّ مَجْمُوعَ الْمُحْكَمَاتِ فِي تَقْدِيرِ شَيْءٍ وَاحِدٍ، وَمَجْمُوعَ الْمُتَشَابِهَاتِ فِي تَقْدِيرِ شَيْءٍ آخَرَ وَأَحَدُهُمَا أُمُّ الْآخَرِ، وَنَظِيرُهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَجَعَلْنَا ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥٓ ءَايَةً﴾[2]، وَلَمْ يَقُلْ آيَتَيْنِ، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ عَلَى مَعْنَى أَنَّ مَجْمُوعَهُمَا آيَةٌ وَاحِدَةٌ، فَكَذَلِكَ هَاهُنَا)[3].

واقتصر البقاعي هنا على المعنى اللغوي لـلأُمِّ فهي عنده بمعنى الأمر الجامع الذي يُؤَمُّ ؛أي: يُقْصَدُ[4] .

وهذه الأقوال متقاربة من حيث المعنى، ولعلَّ أدقَّها في هذه الآية أنَّ المراد بأُم الكتاب الأصل الذي يُرجع إليه =يُؤَمُّ= عند الاختلاف، وكأنَّ القرآن الكريم يقول للمتشككين المرتابين "أنتم تتركون الأصل والمرجع الواضح البيِّن من محكمات الآيات التي فيها أصول الدين والعقيدة، وتجنحون إلى المتشابه وتجعلونه أصلاً ؛ تنطلقون منه لنشر الريبة؛ ولذلك فأنتم زائغون .

- **ب**: قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾[5]، قال ابن عطية: (وأُم الْكتابِ اللوح المحفوظ، وهذا فيه تشريف للقرآن وترفيع. واختلف المتأولون كيف هو في أُمِّ الْكتابِ، فقال عكرمة وقتادة والسدي وعطية بن سعيد: القرآن بأجمعه فيه منسوخ،

---

[1] سورة مريم، من الآية : ٣٥ .

[2] سورة المؤمنون، من الآية : ٥٠ .

[3] التفسير الكبير : ٧/ ١٤٣ .

[4] نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/ ٣٤٣ .

[5] سورة الزخرف، آية : ٤.

ومنه كان جبريل عليه السلام ينزل، وهنالك هو علي حكيم. وقال جمهور الناس: إنَّما في اللوح المحفوظ ذكره ودرجته ومكانته من العلو والحكمة)(١).

وحاول ابن عجيبة بيان دلالة استعمال لفظ "الأُم" هنا بقوله (وسُمِّي أُمّ الكتاب لأنَّه أصل الكتب السماوية، منه تُنقل وتُنسخ)(٢)، وهذا التفسير يتفق مع الدلالة اللغوية للأُم .

ويرى سيد قطب رحمه الله أنَّ جمالية هذا اللفظ هنا إنَّما تظهر عند الابتعاد عن الخلاف حول مدلول هذا اللفظ، محاولاً الاقتراب من الحقيقة الكلية لمدلول تلك الكلمة داخل الآية، ليقول: (ولا ندخل في البحث عن المدلول الحرفي لأم الكتاب ما هي: أهي اللوح المحفوظ، أم هي علم الله الأزلي؟ فهذا كهذا ليس له مدلول حرفي محدد في إدراكنا. ولكننا ندرك منه مفهوما يساعد على تصورنا لحقيقة كلية. وحين نقرأ هذه الآية: «وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيٌّ حَكِيمٌ» .. فإننا نستشعر القيمة الأصيلة الثابتة لهذا القرآن في علم الله وتقديره. وهذا حسبنا. فهذا القرآن «علّي» .. «حكيم» .. وهما صفتان تخلعان عليه ظل الحياة العاقلة. وإنه لكذلك! وكأنما فيه روح. روحٌ ذات سمات وخصائص، تتجاوب مع الأرواح التي تلامسها. وهو في علوه وفي حكمته يشرف على البشرية ويهديها ويقودها وفق طبيعته وخصائصه. وينشئ في مداركها وفي حياتها تلك القيم والتصورات والحقائق التي تنطبق عليها هاتان الصفتان: علي. حكيم.وتقرير هذه الحقيقة كفيل بأن يشعر القوم الذين جعل القرآن بلسانهم بقيمة الهبة الضخمة التي

---

(١) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢ هـ = ١١٤٨م)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢ هـ: ٥/٤٥ .

(٢) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي :(ت: ١٢٢٤ هـ = ١٨٠٩ م)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣ هـ - ٢٠٠٢ م:٥/ ٢٣٣ .

وهبها الله إياهم، وقيمة النعمة التي أنعم الله عليهم ويكشف لهم عن مدى الإسراف القبيح في إعراضهم عنها واستخفافهم بها)(١) .

والباحث يميل إلى القول بأنَّ المقصود بأُمِّ الكتاب هو اللوح المحفوظ؛ أي: إنَّ وصف القرآن الكريم في اللوح المحفوظ "عليٌّ حكيٌم؛ لأنَّ هذه لآية إنَّما هي في سياق مدح القرآن العظيم، وليست في سياق الرَّدِّ على المتشككين المرتابين كما في الآية الأولى؛ وليزداد هذا التوجيه وضوحًا لنتأمَّل الآيات التي قبلها، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿حمٓ (١) وَٱلْكِتَٰبِ ٱلْمُبِينِ (٢) إِنَّا جَعَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ (٣) وَإِنَّهُۥ فِىٓ أُمِّ ٱلْكِتَٰبِ لَدَيْنَا لَعَلِىٌّ حَكِيمٌ﴾(٢)، إذن الآية تذكر لنا صفة القرآن الكريم في اللوح المحفوظ، وبناءً على ما مرَّ فكأنَّ القرآن الكريم يخاطب الكفار والمشركين المعرضين قائلاً : إنَّ هذا القرآن العظيم بآياته وسوره كلِّها أَصْلُهُ عَلِيٌّ، يعلو على كلّ ما سواه، وهو مشتملٌ على الحكمة والحِكَم ؛ إذن فهذا الوصف لذلك الكتاب الكريم وصفٌ أزليٌّ وليس بمستحدث، وهذا الأسلوب أقوى في التأكيد على كون القرآن الكريم من عند الله، وبيان ذلك: لو قيل لُمدير ما : فلان يعمل عندك؟، فقال: نعم، فهذا الجواب يُثبت نسبة ذلك الشخص إلى الدائرة الفلانية فحسب، ولكن لو أجاب المدير ذاته بالقول: فلان أكفأ موظَّفٍ عندي؛ فإنَّ مسألة كون ذلك الموظف منتسبا إلى تلك الدائرة تصبح من الأمور التي ليس بها حاجة إلى التأكيد، بل من البديهيات .

ج- قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾(٣)، قال سهل التُّسْتَرِي: (يمحو الله ما يشاء من الأسباب، ويثبت الأقدار . "وعنده أم الكتاب": القضاء المبرم الذي لا زيادة فيه ولا نقصان)(٤).

---

(١) في ظلال القرآن :٥/ ٣١٧٦ .

(٢) سورة الزخرف، الآيات : ١ – ٤.

(٣) سورة الرعد، آية : ٣٩ .

(٤) تفسير التستري : ٨٥ .

في حين جمع الماوردي ما انتهى إليه من أقوال المفسرين في المراد ب"أُمِّ الكتاب"، فقال فيه ستة تأويلات(١):

- أحدها: الحلال والحرام ، قاله الحسن.
- الثاني: جملة الكتاب ، قاله الضحاك.
- الثالث: هو علم الله تعالى بما خلق وما هو خالق ، قاله كعب الأحبار.
- الرابع: هو الذكر ، قاله ابن عباس.
- الخامس: أنه الكتاب الذي لا يبدل ، قاله السدي.
- السادس: أنه أصل الكتاب في اللوح المحفوظ ، قاله عكرمة.

وأورد الإِيجي نحواً من تلك الأقوال ومال إلى أنَّ المراد هو اللوح المحفوظ، وأشار إلى القول بأنَّ المراد: عِلْمُ الله بصيغة التضعيف (٢).

وأشار محمد أبو زهرة إلى مجازيَّة هذا الاستعمال، فقال: (والتعبير مجازي بالاستعارة، والمراد بالأُمِّ الأصل، وهو الشريعة المتفقة في كل الديانات، فينسخ الله تعالى ويثبت، ولكن أصل هذه الشرائع لا يتغير، وهو الذي بينه الله تعالى في قوله: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ كَبُرَ عَلَى ٱلۡمُشۡرِكِينَ مَا تَدۡعُوهُمۡ إِلَيۡهِۚ ٱللَّهُ يَجۡتَبِيٓ إِلَيۡهِ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِيٓ إِلَيۡهِ مَن يُنِيبُ﴾(٣).

---

(١) النكت والعيون : ٣/ ١١٨ .

(٢) ينظر: جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الإيجي): محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشافعيّ (ت: ٩٠٥ هـ = ١٥٠٠م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م:٢/٢٨٠ .

(٣) المعجزة الكبرى القرآن: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ=١٩٧٤)، ط١، دار الفكر العربي، ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م: ١٩٠؛ والآية من سورة الشورى، آية : ١٣

ويرى الباحث أنَّ المراد بأُم الكتاب هنا أصل كلّ قضاء وقدر، وهو مرادفٌ لعلم الله، وإنَّما سمَّاه أُمَّاً ليؤكّد للمرتابين أنَّ كلَّ ما أُنزل هو بعلمه وهو محيط بكل ذلك، والسياق يقتضي ذلك، فقد ذكرت السورة أنَّ المؤمنين فرحون بما آتاهم الله من آيات الكتاب المنزل، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيۡنَٰهُمُ ٱلۡكِتَٰبَ يَفۡرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَۖ وَمِنَ ٱلۡأَحۡزَابِ مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥۚ قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓۚ إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ ﴾[1]،فقد ذكرت هذه الآية الكتاب المُنزَّل على سيدنا مُحَمَّدﷺ وذكرت فرح المؤمنين به، وإنكار الكافرين.

ثُمَّ ذكرت السورة أنَّه تعالى هو مُنزل القرآن عربيًا، ونهت عن اتباع أهواء هؤلاء المنكرين الكافرين، قال تعالى: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيّٗاۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا وَاقٖ ﴾[2].

ثّم أردفت كلَّ ذلك بالتأكيد على أنَّ آيات الرُّسل كلّها إنَّما نزلت بإذن الله، وإنَّ لكلِّ ذلك وقت مكتوب، قال تعالى: ﴿ وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴾[3]، ونلاحظ هنا أنَّها كرَّرت لفظ "كتاب" .

فناسب كلَّ ذلك أنْ يؤكّد أنَّ الإثبات والتغيير والتبديل كلّه بيد الله؛ لأَنَّ أصل كلِّ كتاب ومرجعه إنَّما هو عنده تعالى وحده؛ ولذلك قال: ﴿ يَمۡحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثۡبِتُۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ ﴾[4].

ثانيًا : أُمّ القُرى

وهو أحد أسماء مكة المكرَّمة، وقد ورد في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع :

---

[1] سورة الرعد، آية :٣٦ .

[2] سورة الرعد، آية :٣٧ .

[3] سورة الرعد، آية : ٣٨ .

[4] سورة الرعد، آية : ٣٩ .

– **أولـها** : قوله تعالى : ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ مُبَارَكٞ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِي بَيۡنَ يَدَيۡهِ وَلِتُنذِرَ أُمَّ ٱلۡقُرَىٰ وَمَنۡ حَوۡلَهَاۚ وَٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ يُؤۡمِنُونَ بِهِۦۖ وَهُمۡ عَلَىٰ صَلَاتِهِمۡ يُحَافِظُونَ﴾(١)، قال الطبري : (يقول تعالى : أنزلنا إليك يا مُحَمَّد هذا الكتاب مصدقاً لما قبله من الكتب، ولتنذر به عذاب الله وبأسه مَنْ في أمِّ القرى وهي مكة، و مَنْ حولهاشرقاً وغرباً ، مِن العادلين بربهم إلى غيره من الأنداد والجاحدين برسله، وغيرهم من أصناف الكفار)(٢)، وهناك أقوال في سبب تسميتها أمّ القرى، أشهرها :

١- لأنَّ الأرض دُحِيَتْ من تحتها، قاله قتادة(٣).

٢- لأنَّها أول بيت وُضِعَ للناس، قاله السدي(٤).

٣- قال الحموي: (وقيل سميت مكة أمّ القرى؛ لأنَّها أقدم القرى التي في جزيرة العرب وأعظمها خطراً ، أمّا لإجماع أهل تلك القرى فيها كل سنة، أو انكفائهم إليها وتعويلهم على الاعتصام لما يرجونه من رحمة الله تعالى)(٥) .

– **وثانيـهـا** : قولـه تعـالى : ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ﴾(٦)، قال القرطبي : (يعني : مكة)(٧) .

---

(١) سورة الأنعام، آية: ٩٢ .

(٢) جامع البيان في تأويل آي القرآن : ١١ / ٥٣١ .

(٣) تفسير القرآن: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١ هـ = ٨٢٧ م)، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ: ٢ / ٢١٣ .

(٤) جامع البيان في تأويل آي القرآن: ١١ / ٥٣١ .

(٥) معجم البلدان : شهاب الدين أبو عبد الله الرومي الحموي(ت: ٦٢٦هـ=١٢٢٩م)، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م : ١/٤٥٤ .

(٦) سورة القصص، آية : ٥٩ .

(٧) تفسير القرطبي : ٣ / ٢٦٨ .

– **وثالثها** : قوله تعالى : ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ قُرْءَانًا عَرَبِيًّا لِّتُنذِرَ أُمَّ ٱلْقُرَىٰ وَمَنْ حَوْلَهَا وَتُنذِرَ يَوْمَ ٱلْجَمْعِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ فَرِيقٌ فِى ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِى ٱلسَّعِيرِ ﴾ (١) .

ومن خلال تأمل تلك الآيات ظهر لي أنَّ اسم " أم القرى "يأتي دائماً في سياق الإنذار والتحذير من الإعراض عن الدعوة والتهديد بالعذاب .

وفي رأيي – لكي نفهم الغاية من اختيار هذا الاسم في هذا السياق–أنَّه ُ لابد لنا أنْ نستحضر في أذهاننا أنَّ مكّة المكرّمة كانت لها هيبة عظيمة لا تكاد تدانيها هيبة قبل الإسلام، وكانت لها مكانة في قلوب الموحدين والمشركين على حد سواء، فقد كانت محجاً للجميع فالحنفاء يقصدونها للعبادة، والمشركون يقصدونها للعبادة، ولما فيها من أصنامهم، وكلا الفريقين يعلم حقاً إنَّ من أساء لمكة أصابه العذاب الأليم عاجلاً وآجلاً .

والقرآن الكريم أَقرَّ تلك المكانة لمكة، ولكنه حين ينذر الكفار بالعذاب يذكر إنذاره " لأُم القرى " ؛ لأنَّه إذا كان الإنذار لتلك القرية العظيمة المنزلة بالهلاك والعذاب فهو من باب أولى يكون لغيرها، فإذا سمع أهل تلك القرى ذلك التحذير أوقع في نفوسهم ما لم يوقعه الإنذار المباشر، وهو يشبه مخاطبة الرئيس وإرادة المرؤوس .

ثالثًا : النَّار

وقد ورد وصف نار جهنَّم بأَنَّها "أُمٌّ" في القرآن الكريممرَّةً واحدة، وذلك في سورة القارعة، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلْقَارِعَةُ (١) مَا ٱلْقَارِعَةُ (٢) وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْقَارِعَةُ (٣) يَوْمَ يَكُونُ ٱلنَّاسُ كَٱلْفَرَاشِ ٱلْمَبْثُوثِ (٤) وَتَكُونُ ٱلْجِبَالُ كَٱلْعِهْنِ ٱلْمَنفُوشِ (٥) فَأَمَّا مَن ثَقُلَتْ مَوَٰزِينُهُۥ (٦) فَهُوَ فِى عِيشَةٍ رَّاضِيَةٍ (٧) وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَٰزِينُهُۥ

---

(١) سورة الشورى، آية: ٧ .

﴿٨﴾ فَأُمُّهُۥ هَاوِيَةٞ ﴿٩﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا هِيَهۡ ﴿١٠﴾ نَارٌ حَامِيَةُۢ ﴾(١)، واختلف المفسِّرون في المراد بقوله فأُمُّهُ هاوية " إلى تفسيرات عدَّة، أبرزها:

١ – **الأصل:** ذهب مقاتل بن سليمان إلى أنَّ المراد هو الأصل، فقال: (" وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ": وهو الشرك. فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ ": يقول لا تحمله الأرض، ولا تظله السماء، ولا شيء إلا النار، فذلك قوله: فَأُمُّهُ هاوِيَةٌ"؛ يعني: أصله هاوية)(٢) .

٢ – **الباب السابع من جهنّم:** في حين ذكر يحيى بن سلام أنَّ الهاوية هي الباب السابع من أبواب جهنم وهي الدرك الأسفل منها؛ وعلَّل تسميتها بالهاوية بقوله: (وَالنَّارُ كُلُّهَا هَاوِيَةٌ، يَهْوُونَ فِيهَا)(٣) .

٣ – **المأوى:** قال الفراء : (صارت مأواه، كما تؤوي المرأة ابنها، فجعلها إِذ لا مأوى لَهُ غيرها أمًّا لَهُ)(٤).

٤ – **إنَّه استعارة** : قال الزركشي : (فَاسْمُ الْأُمِّ الْهَاوِيَةِ مَجَازٌ أَيْ كَمَا أَنَّ الْأُمَّ كَافِلَةٌ لِوَلَدِهَا وَمَلْجَأٌ لَهُ كَذَلِكَ أَيْضًا النَّارُ لِلْكَافِرِينَ كَافِلَةٌ وَمَأْوًى وَمَرْجِعٌ)(٥)، وقال الرَّازي: (وَقِيلَ لِلْمَأْوَى أُمٌّ عَلَى سَبِيلِ التَّشْبِيهِ بِالْأُمِّ الَّتِي لَا يَقَعُ الْفَزَعُ مِنَ الْوَلَدِ إِلَّا إِلَيْهَا)(٦)، وإلى نحو ذلك ذهب ابن عجيبة(٧).

---

(١) سورة القارعة كاملة، الآيات: ١ – ١١ .

(٢) تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت: ١٥٠ هـ = ٧٦٧ م)، تحقيق :عبد الله محمود شحاته، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٣ هـ: ٨١٢/٤ .

(٣) تفسير يحيى بن سلام: يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة، التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت: ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م)، تحقيق: الدكتورة هند شلبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م: ٨٢٨/٢ .

(٤) معاني القرآن :٣/ ٢٨٧ .

(٥) البرهان في علوم القرآن : ٢/ ٢٥٩ .

(٦) التفسير الكبير : ٣٢/ ٢٦٨ .

(٧) البحر المديد في تفسير القرآن المجيد:٧/ ٣٤٦ .

٥- **أصل الرأس"أعلاه"**: أخرج ابن أبي حاتم الرازي عَنْ عِكْرِمَةَ قَالَ: أَمُّ رأسه هاوية في جهنم(١) .

٦- **المسكن** :وذهب الزَّجَّاج إلى أن المراد بذلك المسكن، قائلاً :(وقيل " أُمُّه " لِمَسْكَنِه؛لأنَّ الأصل في السكونِ إلى الأُمَّهاتِ فَأُبْدِلَ فِيما يَسْكُنُ إِلَيْه . " نارٌ حَامِيَةٌ")(٢)، ومال إلى ذلك التفسير والتعليل الواحدي(٣) مستدلاً على صحة هذا التفسير بما روي، أنَّ رسول الله ﷺ، قال: ((إِذَا مَاتَ الْعَبْدُ الْمُؤْمِنُ تَلَقَّى رُوحَهُ أَرْوَاحُ الْمُؤْمِنِينَ فَيَقُولُوا لَهُ: مَا فَعَلَ فُلَانٌ؟ فَإِذَا قَالَ: مَاتَ، قَالُوا: ذُهِبَ بِهِ إِلَى أُمِّهِ الْهَاوِيَةِ، فَبِئْسَتِ الْأُمُّ وَبِئْسَتِ الْمُرَبِّيَةُ))(٤). كما مال إليه البغوي ورجَّحه(٥).

٧-**إنَّه يشبه نوعاً من الدعاء**: قال الزمخشري : (هو من قولهم إذا دعوا على الرجل بالهلكة : هوت أمُّه ؛ لأنَّه إذا هوى ؛أي : سقط وهلك، فقد هوت أمّه ثكلاً وحزناً)(٦).

وقد بين سيد قطب رحمه الله الظلال التي ألقتها لفظة الأُم هنا، فقال: (والأُمُّ هي مرجع الطفل وملاذه. فمرجع القوم وملاذهم يومئذ هو الهاوية! وفي التعبير

---

(١)تفسير القرآن العظيم: ١٠/ ٣٤٥٨ .

(٢)معاني القرآن وإعرابه : ٥/ ٣٥٦ .

(٣)الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨ هـ = ١٠٧٦ م)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م: ٤/٥٤٧ .

(٤)المستدرك على الصحيحين(بتعليق الذهبي): أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (**ت: ٤٠٥هـ= ١٠١٥م**)تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ-١٩٩٠م:٢/ ٥٨١، رقم الحديث: ٣٩٦٨، وقال الذهبي: مرسل .

(٥)معالم التنزيل :٥/٢٩٧ .

(٦)الكشاف: ٣/ ٨١ .

أناقة ظاهرة، وتنسيق خاص. وفيه كذلك غموض يمهد لإيضاح بعده يزيد في عمق الأثر المقصود: « وما أدراكَ ما هِيَهْ؟ » ..سؤال التجهيل والتهويل المعهود في القرآن، لإخراج الأمر عن حدود التصور وحيِّز الإدراك! ثم يجيء الجواب كنبرة الختام: « نارٌ حامِيَةٌ» ..

هذه هي أُمُّ الذي خَفَّت موازينه! أمه التي يفيء إليها ويأوي! والأمُّ عندها الأمن والراحة. فماذا هو واجد عند أمه هذه.. الهاوية.. النار.. الحامية!! إنها مفاجأة تعبيرية تمثل الحقيقة القاسية!)(١).

ويظهر لي –بعد تأمُّل التوجيهات السابقة– أنَّ القرآن الكريم إنَّما سمَّى تلك الدركة من النار أُمَّاً لما يأتي:

- **أولاً** : إنَّه استعارة والاستعارة مبنيَّةٌ على التشبيه، ولكنَّه هنا تشبيهٌ داخل تشبيه؛ أي: إنَّ المقصود إنَّ من خفَّت موازينه فسيكون وسط تلك النار "الهاوية"، أو في بطنها كما إنَّ الإنسان –قبل أن يولد– يكون وسط بطن أُمِّه، وجسمها محيطٌ بجسمه من كلِّ جانب، ومن دخلها فسيكون حاله كحال الجنين في بطن أُمِّه، ليس له حولٌ ولا قوة، فشرابه من شرابها، وغذاؤه من غذائها، بلا اختيار منه ولا قدرة .
- **ثانيًا**: إنَّه جعل تلك الأُمَّ هاويةً تصويرًا لشدَّة ما يلقونه ؛ لأنَّ الأمَّ إذا وقعت فسيصيب جنينها أضعاف ما يصيبها من الأذى، فهي تضغط عليه من كُلِّ جانب .
- **ثالثًا**: إنَّ وصف النار بالأُمِّ فيه تصويرٌ لشدَّة العذاب؛ وذلك لأَنَّ الإنسان إنَّما يكون مأواه ومرجعه "أُمه" لأجل الراحة والاطمئنان، وطلب الراحة والسكون والاطمئنان لا يكون إلا بعد مقاساة العناء والتعب والشدة، فإذا كان مرجع راحة ذلك الإنسان على هذا النحو، –وهو النار الحامية – فكيف بمحلِّ عنائه وشقائه وتعبه ؟! لاشكَّ أنَّه أشدّ عذابًا وأشقى –نسأل الله السلامة– .

---

[١] في ظلال القرآن :٦/ ٣٩٦١ .

المبحث الخامس الأُمِّيُّ إفرادًا وجمعًا

الأُمِّيُّ لُغَةً : ذكر الأزهري أنَّ للأمي معنيين ؛**أحدهما**: هو الذي لا يعرف القراءة والكتابة، **والآخر**: العيّي القليل الكلام(١) .

فأمَّا سبب نسبته إلى الأمِّ، فذكر فيه قولين أيضًا(٢):

– **أحدهما** : قَالَ أَبُو إِسْحَاق: معنى (الْأُمِّي) فِي اللُّغَة: الْمَنْسُوب إِلَى مَا عَلَيْهِ جَبَلَتْهُ أُمُّه، أَي: لَا يكْتب، فَهُوَ فِي أَنه لَا يكْتب على مَا ولد عَلَيْهِ.

– **والآخر**: قيل للَّذِي لَا يكْتب: أُمِّيٌّ؛ لِأَنَّ الْكِتَابَة مكتسبة، فَكَأَنَّهُ نُسب إِلَى مَا وُلد عَلَيْهِ؛ أَي: هُوَ على مَا وَلدته أُمه عَلَيْهِ.

ثُمَّ قال: (وَكَانَت الْكِتَابَة فِي الْعَرَب فِي أهل الطَّائِف تعلّموها من رجل من أهل الْحيرَة، عَن أَهل الأنبار.

وأمَّا المعنى الآخر، فقال: قَالَ أُبو زيد: الأمِّي من الرِّجَال: الْعَيِيّ الْقَلِيل الْكَلَام الجافي الجِلْف؛ وأَنشد:

وَلَا أَعُود بَعْدَهَا كَرِيًّا
أمارس الكَهْلَة والصَّبِيَّا
والعَزَبَ المنفَّه الأُمِّيَّا(٣)

وعلَّل سبب تسميته بالأمي بقوله: (قِيل لَهُ: أمّي؛ لِأَنَّهُ على مَا وَلدته أُمه عَلَيْهِ من قلَّة الْكَلَام وعُجْمة اللّسان)(٤).

ولا يختلف المعنى الاصطلاحّي للأمِّي عن المعنى اللغوي، غير أنَّه أدقّ تحديدًا، قال الراغب الأصفهاني الأُمِّيُّ: (هو الذي لا يكتب ولا يقرأ من كتاب)(١).

---

(١) تهذيب اللغة : ١٥/ ٤٥٦ .

(٢) المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥٦ .

(٣) المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥٦ .

(٤) المصدر نفسه : ١٥/ ٤٥٦ .

والى ذلك ذهب المناوي حيث قال: (الأُمِّيُّ: من لا يحسن الكتابة، نسب إلى أمه؛ لأنَّ عادة النساء الجهل بالكتابة)(٢).

وقد وردت لفظة "الأُمِّيِّ" في القرآن الكريم إفرادًا وجمعًا ست مرات، مرتان بصيغة الإفراد، وأربعٌ بصيغة الجمع .

أولًا: لفظ الأُمِّي مفردًا

أمَّا صيغتا الإفراد فقد وردتا في وصف نبيِّنا مُحَمَّدٍ ﷺ، وذلك في آيتين متتابعتين، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٥٨﴾ ﴾ (٣)، قال الزَّجَّاج : (الْأُمِّيُّ: هو على خلقة الأمَّة، لم يتعلم الكتاب فهو على جِبِلَّتِهِ. وقوله: (الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ) .وهذا أَبلغ في الاحتجاج عليهم لأنه إخبار بما في كُتُبهم.والنبي ﷺ لم يكن يكتب ولا قرأ التوراة

---

(١)المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت:٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية – دمشق بيروت، ١٤١٢ هـ: ٨٧ .

(٢)التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١ هـ = ١٦٢٢ م)، ط١، عالم الكتب ٣٨ شارع عبد الخالق ثروت، القاهرة، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م: ٦٣ .

(٣)سورة الأعراف، الآيتان: ١٥٧-١٥٨ .

والإنجيلَ، ولا عَاشَر أهلَهما، فإتيانه بما فيهما من آيات الله العظام. ومُحال أن يجيءَ مُدَّعٍ إِلى قوم فيقول لهم ذِكْرِي في كتابكم، وليس ذلك فيه. وذكره قد أنبأ من آمن من أهل الكتاب به)⁽¹⁾، ومال البغوي إلى هذا القول،ونقل عن ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قوله: هُوَ نَبِيُّكُمْ كَانَ أُمِّيًّا لَا يَكْتُبُ وَلَا يَقْرَأُ وَلَا يَحْسُبُ⁽²⁾؛ مستدلاً بقول النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((**إِنَّا أُمَّةٌ أُمِّيَّةٌ لَا نَكْتُبُ وَلَا نَحْسُبُ**))⁽³⁾ .

قُلْتُ: واستدلال البغوي بهذا الحديث قويّ؛ لأنَّ الحديث متفقٌ عل صحته⁽⁴⁾ .

وذكر السمرقَنْدي رأي الزجاج ثم أردفه برأيٍ آخر حين قال:.ويقال: إنَّما سُمِّي مُحَمَّدٌ ﷺ أمِّياً لأنه كان من أمِّ القرى، وهي مكة⁽⁵⁾.

والظاهر من قول السمرقندي"وقيل" أنَّه يُضَعِّف هذا الرأي .

أمَّا الماوردي، فإنَّه –كعادته في تفسيره– جمع ما انتهى إليه علمه من أقوال بلا ترجيح أو تضعيف، فقال وفي تسميته بالأمي ثلاثة أقاويل⁽⁶⁾:

–أحدها: أنَّه لا يكتب.

– الثاني: لأنَّه من أمِّ القرى وهي مكة.

– الثالث: لأنَّه من العرب، وهم أُمَّة أُمِّية.

---

[1] معاني القرآن وإعرابه :٢/٣٨١ .

[2] معالم التنزيل :٢/ ٢٣٨ .

[3] ينظر : المصدر نفسه : ٢/٢٣٨ .

[4] صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) :محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ = ٨٧٠م)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ– ١٩٨٧م: ٢/ ٦٧٥؛ رقم الحديث: ١٨١٤؛ صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ): مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ= ٨٧٥م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت: ٢/ ٧٦١؛ رقم الحديث: ١٠٨٠.

[5] بحر العلوم : أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي(ت:٣٧٥هـ= ٩٨٥م)، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت: ١/ ٥٧٠ .

[6] النكت والعيون : ٢/ ٢٦٨ .

وقد أشار القشيري إلى الغاية البلاغية الإعجازية من ذلك فقال: (أظهر شرف المصطفى ﷺ بقوله: «النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ» أي أنه لم يكن شيء من فضائله وكمال علمه وتهيؤه إلى تفصيل شرعه من قبل نفسه، أو من تعلّمه وتكلّفه، أو من اجتهاده وتصرّفه.. بل ظهر عليه كلّ ما ظهر من قبله- سبحانه- فقد كان هو أمّيا غير قارئ للكتب، ولا متتبّع للسّير)(١).

وبسط الرَّازي القول في بيان الإعجاز في ذلك، فقال: (وَاعْلَمْ أَنَّ هَذَا إِشَارَةٌ إِلَى ذِكْرِ الْمُعْجِزَاتِ الدَّالَّةِ عَلَى كَوْنِهِ نَبِيًّا حَقًّا، وَتَقْرِيرُهُ: أَنَّ مُعْجِزَاتِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ كَانَتْ عَلَى نَوْعَيْنِ:

النَّوْعُ الْأَوَّلُ: الْمُعْجِزَاتُ الَّتِي ظَهَرَتْ فِي ذَاتِهِ الْمُبَارَكَةِ، وَأَجَلُّهَا وَأَشْرَفُهَا أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا أُمِّيًّا لَمْ يَتَعَلَّمْ مِنْ أُسْتَاذٍ، وَلَمْ يُطَالِعْ كِتَابًا، وَلَمْ يَتَّفِقْ لَهُ مُجَالَسَةُ أَحَدٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، لِأَنَّهُ مَا كَانَتْ مَكَّةُ بَلْدَةَ الْعُلَمَاءِ، وَمَا غَابَ رَسُولُ اللَّهِ عَنْ مَكَّةَ غَيْبَةً طَوِيلَةً يُمْكِنُ أَنْ يُقَالَ إِنَّ فِي مُدَّةِ تِلْكَ الْغَيْبَةِ تَعَلَّمَ الْعُلُومَ الْكَثِيرَةَ، ثُمَّ إِنَّهُ مَعَ ذَلِكَ فَتَحَ اللَّهُ عَلَيْهِ بَابَ الْعِلْمِ وَالتَّحْقِيقِ وَأَظْهَرَ عَلَيْهِ هَذَا الْقُرْآنَ الْمُشْتَمِلَ عَلَى عُلُومِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، فَكَانَ ظُهُورُ هَذِهِ الْعُلُومِ الْعَظِيمَةِ عَلَيْهِ، مَعَ أَنَّهُ كَانَ رَجُلًا أُمِّيًّا لَمْ يَلْقَ أُسْتَاذًا وَلَمْ يُطَالِعْ كِتَابًا مِنْ أَعْظَمِ الْمُعْجِزَاتِ، وَإِلَيْهِ الْإِشَارَةُ بِقَوْلِهِ: النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ.

وَالنَّوْعُ الثَّانِي: مِنْ مُعْجِزَاتِهِ الْأُمُورُ الَّتِي ظَهَرَتْ مِنْ خَارِجِ ذَاتِهِ مِثْلُ انْشِقَاقِ الْقَمَرِ، وَنُبُوعِ الْمَاءِ مِنْ بَيْنِ أَصَابِعِهِ. وَهِيَ تُسَمَّى بِكَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى)(٢).

واتفق البيضاويُّ مع الرازي في توجيهه(١)، وتابعهما الخازن ولكنَّ بيانه كان أدقّ ممَّن سبقه إذ أضاف قائلاً: (وبيانه أنه ﷺ أتى بهذا الكتاب العظيم الذي أعجزت

---

(١) لطائف الإشارات (تفسير القشيري): عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ=١٠٦٩م)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر: ٥٧٧/١ .

(٢) التفسير الكبير :١٥/ ٣٨٥ .

الخلائقَ فصاحتهُ وبلاغتُهُ، وكان يقرؤه عليهم بالليل والنهار من غير زيادة فيه ولا نقصان منه ولا تغيير، فدل ذلك على معجزته وهو قوله تعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾(٢)، وقيل: إنَّه لو كان يحسن الكتابة ثم إنَّه أتى بهذا القرآن العظيم لكان متهمًا فيه؛ لاحتمال أنه كتبه ونقله عن غيره، فلما كان أميًا وأتى بهذا القرآن العظيم الذي فيه علم الأولين والآخرين والمغيبات دل ذلك على كونه معجزة له ﷺ. وأيضًا فإنَّ الكتابة تُعين الإنسان على الاشتغال بالعلوم وتحصيلها، ثم إنه أتى بهذه الشريعة الشريفة والآداب الحسنة مع علوم كثيرة وحقائق دقيقة من غير مطالعة كتب ولا اشتغال على أحد، فدل ذلك على كونه معجزة له ﷺ)(٣).

ولم يبتعد سيد قطب رحمه الله كثيرًا عمَّن سبقه، ولكنَّه نظر إلى ذلك الوصف من جانب آخر، فالأُمِّي عنده هو من كان على الفطرة الصافية، ثُمَّ نظر إلى المعنى الدقيق لتلك الفطرة، وهي كون المخلوق قد خرج صافيًا من يد الله، قال رحمه الله: (النبيُّ الأمِّيُّ الذي لم يدخل على فطرته الصافية- كما خرجت من يد الله- إلا تعليم الله. فلم تشب هذه الفطرة شائبة من تعليم الأرض ومن أفكار الناس! ليحمل رسالة الفطرة إلى فطرة الناس جميعاً)(٤) وهذا توجيهٌ غايةٌ في الروعة، يدلّ على الحسّ المرهف والذوق العالي.

---

(١) ينظر: أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٩١هـ= ١٢٩٢م)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨ هـ: ٣٧/٣ .

(٢) سورة الأعلى، آية: ٦.

(٣) لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ= ١٣٤١م)، تحقيق محمد علي شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ: ٢/ ٢٥٧ .

(٤) في ظلال القرآن: ٣/ ١٣٧٩ .

وخلاصة ما ظهر للباحث في الغاية من استعمال لفظ "الأُمِّي" في الآيتين المذكورتين ما يأتي:

١- إنَّ الآيتين في سياق دعوة بني إسرائيل- إلى الإيمان بنبينا محمدﷺ، وهما معترضتان وسط قصة سيدنا موسى عليه السلام، وقومه، ومنها قوله تعالى﴿ وَٱخۡتَارَ مُوسَىٰ قَوۡمَهُۥ سَبۡعِينَ رَجُلٗا لِّمِيقَٰتِنَاۖ فَلَمَّآ أَخَذَتۡهُمُ ٱلرَّجۡفَةُ قَالَ رَبِّ لَوۡ شِئۡتَ أَهۡلَكۡتَهُم مِّن قَبۡلُ وَإِيَّٰيَۖ أَتُهۡلِكُنَا بِمَا فَعَلَ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَّآۖ إِنۡ هِيَ إِلَّا فِتۡنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَآءُ وَتَهۡدِي مَن تَشَآءُۖ أَنتَ وَلِيُّنَا فَٱغۡفِرۡ لَنَا وَٱرۡحَمۡنَاۖ وَأَنتَ خَيۡرُ ٱلۡغَٰفِرِينَ (١٥٥) ۞ وَٱكۡتُبۡ لَنَا فِي هَٰذِهِ ٱلدُّنۡيَا حَسَنَةٗ وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِنَّا هُدۡنَآ إِلَيۡكَۚ قَالَ عَذَابِيٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنۡ أَشَآءُۖ وَرَحۡمَتِي وَسِعَتۡ كُلَّ شَيۡءٖۚ فَسَأَكۡتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤۡمِنُونَ (١٥٦) ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلۡأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكۡتُوبًا عِندَهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَٱلۡإِنجِيلِ يَأۡمُرُهُم بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَىٰهُمۡ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيۡهِمُ ٱلۡخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنۡهُمۡ إِصۡرَهُمۡ وَٱلۡأَغۡلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتۡ عَلَيۡهِمۡۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُواْ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴾(١).

وقال بعد ذلك: ﴿وَمِن قَوۡمِ مُوسَىٰٓ أُمَّةٞ يَهۡدُونَ بِٱلۡحَقِّ وَبِهِۦ يَعۡدِلُونَ (١٥٩) وَقَطَّعۡنَٰهُمُ ٱثۡنَتَيۡ عَشۡرَةَ أَسۡبَاطًا أُمَمٗاۚ وَأَوۡحَيۡنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ إِذِ ٱسۡتَسۡقَىٰهُ قَوۡمُهُۥٓ أَنِ ٱضۡرِب بِّعَصَاكَ ٱلۡحَجَرَۖ فَٱنۢبَجَسَتۡ مِنۡهُ ٱثۡنَتَا عَشۡرَةَ عَيۡنٗاۖ قَدۡ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٖ مَّشۡرَبَهُمۡۚ وَظَلَّلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡغَمَٰمَ وَأَنزَلۡنَا عَلَيۡهِمُ ٱلۡمَنَّ وَٱلسَّلۡوَىٰۖ كُلُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقۡنَٰكُمۡۚ وَمَا ظَلَمُونَا وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ﴾ (٢)، إذن فالآيتان في سياق آيات تدعو اليهود -أهل الكتاب- إلى الإيمان بسيدنا مُحَمَّد "المكتوب" عندهم ؛ ولذلك ذكره بالوصف المذكور في كتبهم وهو الأمِّي . وهذا الوصف يتضمَّن غاية الإعجاز الرباني،

---

(١)سورة الأعراف، الآيات: ١٥٥ – ١٥٧ .

(٢)الأعراف: ١٥٩ - ١٦٠

حين يظهر نبّي أّميٌّ في قوم ملكوا زمام البلاغة فيأتيهم بما يعجزهم ويخرس ألسنتهم .

٢- أمَّا قوله في الآية الثانية:﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ فإنَّه حين أمر نبيَّه ﷺ أن يقول لهم "بالنبي الأُمِّي"، ولم يأمره بالقول "بي" فكأنه يقول: أنا ادعوكم إلى الإيمان بما في كتابكم ولا أَدعوكم إلى نفسي، وهذا غاية في الإنصاف .

٣- نلاحظ في الآيتين الترتيب الآتي" الرسول-النبّي- الأّمّي" وهو ترتيب من العام إلى الخاصّ، وذلك أنَّ كلّ رسول نبّي، وليس كلّ نبّي رسول. كما أنَّ من خصوصيات نبّينا ﷺ أنَّه أمِّي وليس كلُّ نبيٍّ أُمّي، وفي ذلك بيان لعظمته ﷺ ، وبيان ذلك أنَّ معجزته الخالدة هي القرآن وهو بلسان عربّي مبين، وقد علمه الله إياه بالوحي بلا معلم، ومع ذلك فقد صار داعياً "رسولاً" للناس أجمعين، فكم من متعلم درس على أيدي علماء ومدرسين عظام لا نجد عنده القدرة على تعليم ما درسه لسنوات، فكيف بذلك الرجل الأّمّي الذي يفصّل القول للناس، ويبين لهم الحلال والحرام، ويرشدهم الى ما ينفعهم، وينهاهم عمَّا يضرهم؟! أبعد كلّ تلك القدرات والمواهب تشكّون في نبوَّته ؟!

٤- إنَّ في ذكر لفظ الأّمي هنا تأكيد لأهل الكتاب بأن رضوان الله لا ُينال بالقراءة أو الكتابة، وإنَّما باتباع ما يأمر به سبحانه وما ينهى عنه، وإنَّه سبحانه يختار من يشاء من عباده لتبليغ أمره للخلق، وإنَّما قال الباحث ذلك لأنَّ أهل الكتاب كانوا يرون أنفسهم فوق الناس أجمعين لأنَّهم أهل كتاب_قراءة وكتابة- بزعمهم فأراد سبحانه تفنيد مزاعمهم، واختبار تسليمهم لأمره .

٥-انطلاقاً من أحد جوانب توجيه سيد قطب رحمه الله المذكور آنفاً فإنَّ الغاية من إيراد لفظ الأُمّي هي تعظيم سيدنا مُحَمَّدٍ ﷺ وتنزيهه عمَّا لا يليق به، فكأنَّ

القرآن الكريم يخاطب أهل الكتاب قائلاً : اتبعوا هذا النبّي ذي الفطرة الصافية التي أتتكم كما خرجت من يده سبحانه طاهرة مطهرة، لا تعرف الكذب، ولا الرغبات النفسية والشخصية .

٦- بما أنَّ الآيتين في سياق مدحه وتعظيمه ﷺ فإنَّ لفظ الأُمّي هنا إنَّما هو لغرض الثناء وبيان عظمة المعجزة، لا لغرض الانتقاص -حاشاه ﷺ-، وإنّما قلت ذلك لأنَّ من عادة الناس-ولاسيما بعد انتشار التعليم- أن يعدّوا الأُمّية سمة نقص، وقد أوردها القرآن الكريم وجعلها سمةً للنقص حين وصف بها أهل الكتاب كما سيأتي بيانه -إن شاء الله تعالى- ؛ ولكنَّها في نبينا مُحَمَّدٍ صفة كمالٍ مُعْجِزٍ، قال الراغب الأصفهاني: (وهذه الحالة فضيلة للنبي ﷺ ونقيصة لغيره، من أجل أنه ﷺ حفظ عليه علومه فيض إلاهي ونور سماوي، فصار افتقاره غنًى، كما روى عنه ﷺ أنه كان يقول في دعائه: " اللهم اغنني بالافتقار إليك "، وغيره لما احتاج إلى أن يحفظ معلومه عليه آدمي مثله صار في الحقيقة ناقصًا، وفقيراً)(١).

ثانيًا : لفظ الأُمّي مجموعًا

وقد ورد بصيغة الجمع أربع مرات في القرآن الكريم :

- **أوَّلها:** في وصف افتراء أهل الكتاب على الكتاب ما ليس فيه وذمِّهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ وَإِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾(٢)؛أي: ومن هؤلاء -اليهود الذين قص الله قصصهم في هذه الآيات، وأيأس أصحاب رسول الله ﷺ من إيمانهم قومٌ لا يكتبون ولا يقرءون، و لا يعلمون ما في الكتاب الذي أنزله الله، ولا يدرون ما أودعه الله من حدوده وأحكامه وفرائضه، ولا يدرون ما في الكتاب الذي عرفتموه الذي هو عندهم - وهم ينتحلونه ويدعون الإقرار به - من أحكام الله وفرائضه، وما فيه من حدوده التي بينها

---

(١)تفسير الراغب الأصفهاني: ١/ ٢٣٨ .

(٢)سورة البقرة، آية : ٧٨ .

فيه.وهؤلاء الذين وصفهم الله بما وصفهم به في هذه الآية، هم حقّاً لا يفقهون من الكتاب الذي أنزله الله على موسى شيئا، ولكنهم يتخرصون الكذب ويتقولون الأباطيل كذبا وزورا(١)، وهؤلاء مع كونهم لا يحسنون القرءة والكتابة يجوز أن يتعلموا القراءة تلقيناً ولكنَّهم لا يفهمون المعاني(٢)، وعلى كلّ حال فهؤلاء هوِيَتُهُم التَّقلِيدُ وقَبُولُ ما يُقَالُ لَهُم كتغيير صفته ﷺ .

وقد ذكر ابن عاشور سبب وصف هؤلاء بالأميين هنا بقوله : (وقد اشتهر اليهود عند العرب بوصف أهل الكتاب فلذلك قيل هنا : " ومنهم أميون "؛ أي: ليس جميعهم أهل كتاب . ولم تكن الأميةُ في العرب وصفَ ذَمٍّ لكنها عند اليهود وصف ذم) (٣).

ويظهر لي إنَّه وصفهم هنا بالأمِّيين؛ ذمَّاً لهم وتجهيلاً ؛ لأنَّهم مع أُمِّيتهم وجهلهم يفترون على الله، ومن افتراءاتهم، ما ذكره سبحانه بقوله:﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامٗا مَّعۡدُودَةٗۚ قُلۡ أَتَّخَذۡتُمۡ عِندَ ٱللَّهِ عَهۡدٗا فَلَن يُخۡلِفَ ٱللَّهُ عَهۡدَهُۥٓۖ أَمۡ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعۡلَمُونَ ﴾ (٤)، فوصفهم بأنَّهم يقولون على الله ما لا علم لهم به، إذن الذّم لصفة الأُمية لا للصفة ذاتها، وإنَّما لادِّعاء العلم بالكتاب المصاحب لها، الذي اتَّسم به هؤلاء .

– **وثانيها:** ما ورد في سياق أمر الله سبحانه لنبيه بأن يدعو الناس جميعًا، قال تعالى: ﴿ فَإِنۡ حَآجُّوكَ فَقُلۡ أَسۡلَمۡتُ وَجۡهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡأُمِّيِّـۧنَ

---

(١)ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن: ٢/ ٢٦٢ .

(٢)ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: ١/ ١٧٦ .

(٣)التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م: ١/ ٥٧٣ .

(٤)سورة البقرة، الآية : ٨٠ .

ءَأَسۡلَمۡتُمۡۚ فَإِنۡ أَسۡلَمُواْ فَقَدِ ٱهۡتَدَواْۖ وَّإِن تَوَلَّوۡاْ فَإِنَّمَا عَلَيۡكَ ٱلۡبَلَٰغُۗ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِٱلۡعِبَادِ ﴾(١)، قال الزَّجَّاج : (الذين أوتوا الكتاب ": اليهود والنصارى، و" الأميون ": مشركو العرب؛ لأنهم إنما نسُوا إلى ما عليه الأمة في الخلقة؛ لأنَّ الإنسان يُخْلَقُ غير كاتب، فهذا معنى الأمِّيين)(٢).

ويبدو لي أنَّه سمَّاهم الأميين هنا ؛ لأنَّه في سياق الأمر بدعوة الناس جميعًا إلى الإسلام الدين الناسخ لجميع الديانات، وجزيرة العرب كانت تضّم اليهود والنصارى وقد سماهم أهل الكتاب؛ إشارة إلى معرفتهم القراءة والكتابة، فناسب ذلك أن يُسمِّي الفريق الآخر بما يناسبه من الوصف وهو الأُمِّيَّة .

– **وثالثها:** ما ورد على لسان أهل الكتاب؛ انتقاصًا من العرب، واستعلاءً عليهم، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ ۞ وَمِنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ مَنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِقِنطَارٖ يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ وَمِنۡهُم مَّنۡ إِن تَأۡمَنۡهُ بِدِينَارٖ لَّا يُؤَدِّهِۦٓ إِلَيۡكَ إِلَّا مَا دُمۡتَ عَلَيۡهِ قَآئِمٗاۗ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ قَالُواْ لَيۡسَ عَلَيۡنَا فِي ٱلۡأُمِّيِّـۧنَ سَبِيلٞ وَيَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلۡكَذِبَ وَهُمۡ يَعۡلَمُونَ ﴾(٣)، فالمراد بالأُمِّيين هنا العرب عند معظم المفسرين(٤)، قال الزمخشري في معنى الآية: (أي: لا يتطرق علينا عتابٌ وذمٌّ في شأن " الأميين ": يعنون الذين ليسوا من أهل الكتاب، وما فعلنا بهم من حبس أموالهم والإضرار بهم لأنهم ليسوا على ديننا. وكانوا يستحلون ظلم من خالفهم، ويقولون: لم يُجعل لهم في كتابنا حرمة)(٥).

وقد ذكر الرازي تعلق هذه الآية بما قبلها من الآيات– يعني قوله تعالى: ﴿ وَقَالَت طَّآئِفَةٞ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ ءَامِنُواْ بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَجۡهَ ٱلنَّهَارِ وَٱكۡفُرُوٓاْ ءَاخِرَهُۥ

---

(١) سورة آل عمران، الآية : ٢٠ .

(٢) معاني القرآن وإعرابه :١/ ٣٩٠ .

(٣) سورة آل عمران، آية : ٧٥ .

(٤) ينظر : تفسير مقاتل : ٢٨٥/١؛ جامع البيان في تأويل القرآن: ٥٢١/٦؛ بحر العلوم :٢٤٩/١؛ معالم التنزيل : ١/ ٤٥٨، وغيرها .

(٥) الكشاف :١/ ٤٠٢ .

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٧٢﴾ وَلَا تُؤْمِنُوٓاْ إِلَّا لِمَن تَبِعَ دِينَكُمْ قُلْ إِنَّ ٱلْهُدَىٰ هُدَى ٱللَّهِ أَن يُؤْتَىٰٓ أَحَدٌ مِّثْلَ مَآ أُوتِيتُمْ أَوْ يُحَآجُّوكُمْ عِندَ رَبِّكُمْ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْفَضْلَ بِيَدِ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٧٣﴾ يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ ﴾⁽¹⁾، فقال: (اعْلَمْ أَنَّ تَعَلُّقَ هَذِهِ الْآيَةِ بِمَا قَبْلَهَا مِنْ وَجْهَيْنِ الْأَوَّلُ أَنَّهُ تَعَالَى حَكَى عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ أَنَّهُمُ ادَّعَوْا أَنَّهُمْ أُوتُوا مِنَ الْمَنَاصِبِ الدِّينِيَّةِ، مَا لَمْ يُؤْتَ أَحَدٌ غَيْرُهُمْ مِثْلَهُ، ثُمَّ إِنَّهُ تَعَالَى بَيَّنَ أَنَّ الْخِيَانَةَ مُسْتَقْبَحَةٌ عِنْدَ جَمِيعِ أَرْبَابِ الْأَدْيَانِ، وَهُمْ مُصِرُّونَ عَلَيْهَا، فَدَلَّ هَذَا عَلَى كَذِبِهِمْ والثَّانِي: أَنَّهُ تَعَالَى لَمَّا حَكَى عَنْهُمْ فِي الْآيَةِ الْمُتَقَدِّمَةِ قَبَائِحَ أَحْوَالِهِمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِالْأَدْيَانِ وَهُوَ أنهم قالوا: "لَا تُؤْمِنُوا إِلَّا لِمَنْ تَبِعَ دِينَكُمْ" حَكَى فِي هَذِهِ الْآيَةِ بَعْضَ قَبَائِحِ أَحْوَالِهِمْ فِيمَا يَتَعَلَّقُ بِمُعَامَلَةِ النَّاسِ، وَهُوَ إِصْرَارُهُمْ عَلَى الْخِيَانَةِ وَالظُّلْمِ وَأَخْذِ أَمْوَالِ النَّاسِ فِي الْقَلِيلِ)⁽²⁾.

ويظهر لي أنَّ الغاية البلاغية من استعمال لفظ الأُمِّيين دون العرب في هذه الآية؛ أنَّ القرآن الكريم أراد التأكيد على أنَّ اليهود إنَّما اتخذوا خيانة العهود منهجًا مع العرب تكبُّرًا عليهم؛ لأنَّ العرب كانوا أُمِّيين لا يعرفون القراءة ولا الكتابة، في حين كان اليهود يعرفونهما، وهم أهل كتاب يقرؤونه بخلاف العرب، وبهذا رأوا لأنفسهم مزية على العرب، فهم يرون أنَّهم شعب الله المختار، وأنهم أولياء الله وأحباؤه، وقد ذكرت سورة آل عمران ملامح تكبُّرهم في أكثر من موضع، ومنها:

- قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَآجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِىَ لِلَّهِ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِ ۗ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُواْ فَقَدِ ٱهْتَدَواْ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْاْ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴾ ⁽³⁾، فقد ذكرت هذه الآية أنَّ اختلاف

---

[1] سورة آل عمران، الآيات: ٧٢ – ٧٤ .

[2] التفسير الكبير : ٨/ ٢٦٢ .

[3] سورة آل عمران، الآيتان: ١٩-٢٠ .

أهل الكتاب هو تكبرًا وحسدًا منهم لبعضهم البعض، وأشارت بأنَّ تولِّي أهل الكتاب وإعراضهم أمرٌ متوقَّع منهم .

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾﴾⁽¹⁾، فذكر تكبّرهم عن الانصياع إلى الحق وإعراضهم عن اتباعه، ثمَّ أردف ذلك بذكر ما أوردوه من حجّة لعدم اتباع الحقّ وهو اعتقادهم التّام وقناعتهم الكاملة بأنَّهم هم الناجون، وإنَّهم إنْ عُذّبوا فإنَّ ذلك العذاب سيكون مؤقتًا، قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُواْ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ وَغَرَّهُمْ فِي دِينِهِم مَّا كَانُواْ يَفْتَرُونَ﴾⁽²⁾، فانظر هنا كيف ذكر غرورهم بما افتروه هم أنفسهم .

وغير ذلك من الآيات التي تذكر تولّيهم عن الحقّ تكبّرا على الخلق .

- **ورابعها:** قَالَ تَعَالَىٰ: ﴿هُوَ ٱلَّذِي بَعَثَ فِي ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُواْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾⁽³⁾، وقد تساءل الماوردي عن الوجوه الإعجازية والبلاغية من وصف النّبي بأنَّه من الأُميين هنا، ليخلص إلى أنَّها ترجع إلى ثلاث غايات ⁽⁴⁾:

- الأولى : لموافقته ما تقدم من بشارة الأنبياء.
- والثانية : لمشاكلة حاله لأحوالهم -يعني العرب- فيكون أقرب لموافقتهم.
- والثالثة : لينفي عنه سوء الظنّ في تعليمه ما دعى إليه من الكتب التي قرأها والحكم التي تلاها.

---

[1] سورة آل عمران، آية : ٢٣ .

[2] سورة آل عمران، آية: ٢٤ .

[3] سورة الجمعة، آية : ٢ .

[4] النكت والعيون : ٦/٦ .

في حين حاول ابن كثير القرشي بيان الغاية من تخصيص الأميين بالذكر، فقال: (وَتَخْصِيصُ الْأُمِّيِّينَ بِالذِّكْرِ لَا يَنْفِي مَنْ عَدَاهُمْ، وَلَكِنَّ الْمِنَّةَ عَلَيْهِمْ أَبْلَغُ وَآكَدُ)[1].

وتوسَّع ابن رجب الحنبلي في بيان تلك الغاية حيث قال: (وقوله: "فِي الأُمِّيِّينَ"

- والمرادُ بهم العَرَبُ – تنبيهٌ لهم على قدرِ هذه النِّعمةِ وعظمِها، حيثُ كانوا أميينَ لا كِتابَ لهم، وليسَ عندَهم شيء من آثارِ النُّبوَّاتِ، كما كان عندَ أهلِ الكتابِ، فمنَّ اللَّه عليهم بهذا الرسول وبهذا الكتاب، حتى صاروا أفضلَ الأمم وأعلَمهم، وعرفُوا ضلالةَ مَنْ ضلَّ من الأمم قبلَهم)[2].

ثمَّ مضى يُحلِّل دلالة قوله تعالى "منهم" فأرجعها إلى فائدتين[3]:

- إحداهما: إنَّ هذا الرَّسول كان أيضًا أميًّا كأمَّتِه المبعوثِ إليهم، لم يقرأْ كِتابًا قطُّ، ولم يَخُطه بيمينِه.
- والفائدة الثانية: التنبيهُ على أنَّ المبعوثَ فيهم – وهم الأمِّيُّون، ولاسيَّما أهل مكَّةَ – يعرفُونَ نسبهُ، وشرفهُ، وصدقهُ، وأمانتهُ، وعفتهُ، وأنَّه نشأ بينهُم معروفًا بذلك كلِّه، وأنَّه لم يكذبْ قطُّ؛ فكيفَ كان يدعُ الكذبَ على النَّاسِ ثم يفترِي الكذبَ على اللَّه عزَّ وجل، وهذا هو الباطِلُ، ولذلك سأل هِرقلُ عن هذه الأوصافِ، واستدل بها على صدقِهِ فيما ادَّعاهُ من النُّبوةِ والرِّسالةِ.

وانطلق سيد قطب مُحلِّقًا في أجواء الآية التي صنعتها تلك اللفظة فقال: (والمِنَّة ظاهرة في اختيار الله للأميين ليجعلهم أهل الكتاب المبين، وليرسل فيهم رسولا منهم،

---

[1] تفسير القرآن العظيم : أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ= ١٣٧٣م)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ – ١٩٩٩م:٨/ ١١٥ .

[2] روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي): زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي(ت: ٧٩٥هـ=١٣٩٣م)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط١، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢ – ٢٠٠١ م: ٢/ ٤٢٧ .

[3] المصدر نفسه : ٤٢٧/٢ .

يرتفعون باختياره منهم إلى مقام كريم ويخرجهم من أميتهم أو من أمميتهم بتلاوة آيات الله عليهم، وتغيير ما بهم، وتمييزهم على العالمين)[١].

ثُمَّ انتقل إلى بيان جوانب تلك النعمة العظمى التي صرحت بها الآية، فقال: (« وَيُزَكِّيهِمْ» .. وإنَّها لتزكية وإنَّه لتطهيرٌ ذلك الذي كان يأخذهم به الرسولﷺ، تطهيرٌ للضمير والشعور، وتطهيرٌ للعمل والسلوك، وتطهيرٌ للحياة الزوجية، وتطهيرٌ للحياة الاجتماعية. تطهيرٌ ترتفع به النفوس من عقائد الشرك إلى عقيدة التوحيد، ومن التصورات الباطلة إلى الاعتقاد الصحيح، ومن الأساطير الغامضة إلى اليقين الواضح. وترتفع به من رجس الفوضى الأخلاقية إلى نظافة الخلق الإيماني. ومن دنس الربا والسحت إلى طهارة الكسب الحلال.. إنَّها تزكية شاملة للفرد والجماعة ولحياة السريرة وحياة الواقع. تزكية ترتفع بالإنسان وتصوراته عن الحياة كلها وعن نفسه ونشأته إلى آفاق النور التي يتصل فيها بربه، ويتعامل مع الملأ الأعلى ويحسب في شعوره وعمله حساب ذلك الملأ العلوي الكريم .«وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ » .. يعلمهم الكتاب فيصبحون أهل كتاب. ويعلمهم الحكمة فيدركون حقائق الأمور، ويحسنون التقدير، وتلهم أرواحهم صواب الحكم وصواب العمل وهو خير كثير.«وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ» .. ضلال الجاهلية)[٢].

ويظهر للباحث أنَّه أورد لفظ "الأمِّيين" هنا لأمورٍ لعلَّ منها:

١- لبيان عِظَم الامتنان ببعثة سيدنا مُحَمَّد ﷺ لأنَّه هو من علَّمهم الكتاب"القرآن الكريم" وفصَّل لهم أحكامه وبينها من خلال سنَّته العظيمة .

٢- إنَّ العرب قبل تلقيهم دعوة النبي ومعرفتهم تعاليمها وأحكامها كانوا كمن خرج من بطن أمِّه للتَّو فهو على الفطرة الخالية من أي علم ومعرفة، إذا ما قورن حالهم بحالهم بعد بعثته، وتلقيهم تعاليم دعوته فكانوا "أُميِّين"، ثمَّ صاروا أهل كتاب وحكمة ومعرفة .

---

[١] في ظلال القرآن : ٦/ ٣٥٦٥ .

[٢] المرجع نفسه : ٦/ ٣٥٦٥ .

٣- في الآية نوع من العتاب للمسلمين؛ لتركهم رسول الله يوم الجمعة، عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ يَخْطُبُ يَوْمَ الْجُمُعَةِ إِذْ أَقْبَلَتْ عِيرٌ قَدْ قَدِمَتْ مِنَ الشَّامِ، فَخَرَجُوا إِلَيْهَا حَتَّى لَمْ يَبْقَ مَعَهُ إِلَّا اثْنَا عَشَرَ رَجُلًا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى: ﴿وَإِذَا رَأَوۡاْ تِجَٰرَةً أَوۡ لَهۡوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيۡهَا وَتَرَكُوكَ قَآئِمٗاۚ﴾(١)، فكأنَّ القرآن يعاتبهم قائلاً لهم أيستحقّ هذا النبّي العظيم أن يترك وحده قائمًا يخطب وهو من نقلكم من ظلمات الأميَّة إلى أنوار المعارف؟!

ونحن في هذا الزمان نعرف قيمة هذا المعنى وأمثال هذا الخطاب، وليس النبي الأُمّي الأعظم مشمولاً بذلك قطعًا، بل إنَّ هذا الوصفَ له معجزة عظمى ؛ لأنَّه مع كونه أُمِّياً انتشل كلّ تلك الشعوب من ظلمات الجهالة إلى آفاق المعرفة، ومن عظمة ذلك النبي الأمي أننا الآن وبعد أكثر من أربعة عشر قرنًا وربع القرن من الزمان من التحاقه بالرفيق الأعلى لا نزال نكتب الأطاريح والرسائل والمؤلفات الضخمة التي تدرس شيئًا من أقواله أو تحلِّل شيئاً من أفعاله ﷺ، ولا نستطيع الإحاطة بمدلولاتها كلِّها، مع أنَّنا نتعلم القراءة والكتابة منذ سنٍّ مبكرة؛ ولذلك فإني أرى أننا نحن المعنيون بقوله بعد الآية المذكورة، ﴿وَءَاخَرِينَ مِنۡهُمۡ لَمَّا يَلۡحَقُواْ بِهِمۡۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡحَكِيمُ﴾(٢).

---

(١)مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ= ٨٥٥م)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م:٢٢/ ٢٥٦، رقم الحديث: ١٤٣٥٦؛ صحيح البخاري: ٣/٥٥، رقم الحديث: ٢٠٥٨؛ صحيح مسلم: ٥/٥٩٠، رقم الحديث: ٨٦٣؛ والآية من سورة الجمعة، من الآية : ١١ .

(٢)سورة الجمعة، آية : ٣ .

الخاتمة

- ظهر لي أنَّ لفظ "الأُم" قد ورد في القرآن الكريم سبعاً وثلاثين مرة، وقد أريد به الوالدة أربعاً وعشرين مرة، وذلك في موضوعات عدَّة، هي: وصف خلق الإنسان، وقصة سيدنا موسى، وقصة سيدنا عيسى عليهما السلام، وفي المحرمات من النكاح وأحكام الظِّهار وفي المواريث، وفي الأمر ببرِّ الوالدين، وفي وصف أهوال القيامة، في حين أُريد بالأُمِّ غير الوالدة في سبع مواضع، وورد لفظ "الأُمِّي" ست مرات، اثنتان منها بصيغة المفرد، والأربع المتبقية بصيغة الجمع .
- وتبيَّن أنَّ لفظ الأُم ورد في سياق خلق الإنسان ثلاث مرات، كانت الغاية منه عمومًا تذكير الإنسان بما أنعم الله عليه من نعم ومنها أنَّه جعل له أُمَّاً يؤمّها في شؤونه كلِّها، فتقوم على قضاء حاجاته ورعايته، في حين سمَّى الأُم والدة في سياق ذكر الرضاع؛ لأنَّه يكون بعد الولادة مباشرةً.
- وخلصتُ إلى أنَّه ورد لفظ الأُم في قصة سيدنا موسى ﵇ سبع مرات، وهو يتضمَّن كلّ ما تحمله تلك الكلمة من دلالات ومعان، كالحنوّ الشديد والعطف والشوق إلى الطفل الوليد الذي فارق أمَّه بعد أن توطَّدت علاقة المحبة والعطف، كما ورد في محاولة سيدنا هارون ﵇ تهدئة سيدنا موسى ﵇؛ لأنَّ الأُمَّ رمزٌ للسكون والرحمة .
- واتضح لي أنَّه ورد في قصة سيدنا عيسى ﵇ أربع مرات، وكان الغرض التأكيد على بشريته ونفي إلوهيته من خلال التصريح بأنَّ له أُمَّاً يؤمّها لتقوم على شؤونه، وهي مرجعه وأصله، ولا ينبغي أن يكون للإله من أصل أو مرجع ؛ لأنَّه خالق كُلِّ شيء .
- وظهر لي أنَّ لفظ الأُم ورد في سياق ذكر الأحكام الشرعية تسع مرات، لينهى عن تحويل علاقة الأمومة إلى علاقة شهوة كما في تحريم نكاح الأمهات، أو لتعظيم المنزلة كما في أمهات المؤمنين، وغير ذلك .

- وتبيَّن أنَّ لفظ الأُمّ قد وُصفت به غير الوالدة سبع مرات، ثلاثٌ منها لآيات الكتاب الكريم، وثلاثٌ لمكة المكرمة، ومرةً واحدة وصفًا للنار، وقد أُريد به اللوح المحفوظ وعلم الله عند وصف آيات الله، في حين سُمِّيت مكة المكرَّمة أُمّ القرى في سياق الإنذار؛ ليكون أبلغ في تخويف القرى الأُخرى؛ لأنَّ أهلها كانوا ينظرون إلى مكة نظرة تقديس و تعظيم، ووُصفت به النَّار لشدَّة التهويل والتخويف .
- وخلصتُ إلى أَنَّ القرآن الكريم وصف سيدنا مُحمَّدًا ﷺ بالأُمِّيِّ مرتين؛ لغرض بيان مدى عظمة معجزته في هداية الخلق، وتعليمهم القرآن وأحكام الشريعة الغراء، في حين ورد لفظ الأُمِّيِّ مجموعًا أربع مرات، فما جاء منها في وصف اليهود فهو لغرض الذَّمِّ، وما جاء على لسانهم لوصف العرب فهو بسبب تعاليهم على العرب واستكبارهم عليهم .

المصادر والمراجع

القُرآن الكَرِيم

أوَّلاً : المَصادر

١- أحكام القرآن :أحمد بن علي أبو بكر الرازي الجصاص الحنفي (ت: ٣٧٠هـ =٩٨٠ م)، تحقيق: عبد السلام محمد علي شاهين، ط١، دار الكتب العلمية بيروت، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م .

٢- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (تفسير أبي السعود): أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت: ٩٨٢هـ= ١٥٧٤ م)، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٣- أنموذج جليل في أسئلة وأجوبة عن غرائب آي التنزيل: : زين الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر بن عبد القادر الحنفي الرازي (ت: بعد ٦٦٦ هـ = بعد ١٢٦٨م)، تحقيق: د. عبد الرحمن بن إبراهيم المطرودى،ط١، دار عالم الكتب المملكة العربية السعودية – الرياض، ١٤١٣ هـ، ١٩٩١ م.

٤- أنوار التنزيل وأسرار التأويل: ناصر الدين أبو سعيد عبد الله بن عمر بن محمد الشيرازي البيضاوي (ت: ٦٩١هـ= ١٢٩٢م)، تحقيق: محمد عبد الرحمن المرعشلي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤١٨ هـ .

٥ – بحر العلوم : أبو الليث نصر بن محمد بن إبراهيم السمرقندي الفقيه الحنفي(ت:٣٧٥هـ= ٩٨٥م)، تحقيق: د.محمود مطرجي، دار الفكر، بيروت .

٦- البحر المحيط : محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان الأندلسي، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢ هـ – ٢٠٠١ م .

٧- البحر المديد في تفسير القرآن المجيد: أبو العباس أحمد بن محمد بن المهدي بن عجيبة الحسني الأنجري الفاسي :(ت: ١٢٢٤ هـ = ١٨٠٩ م)، تحقيق: أحمد عبد الله القرشي رسلان، ط٢، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣ هـ– ٢٠٠٢ م.

٨- البرهان في علوم القرآن: أبو عبد الله بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت: ٧٩٤ هـ = ١٣٩٢م)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط١، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابى الحلبي وشركائه، ١٣٧٦ هـ - ١٩٥٧ م.

٩- تاج العروس من جواهر القاموس : محمّد بن محمّد بن عبد الرزّاق الحسيني، أبو الفيض، الملقّب بمرتضى، الزَّبيدي (ت: ١٢٠٥هـ= ١٧٩٠ م) تحقيق: مجموعة من المحققين، دار الهداية .

١٠- التبيان في إعراب القرآن:أبو البقاء عبد الله بن الحسين العكبري(ت: ٦١٦هـ= ١٢١٩ م)، تحقيق:علي محمد البجاوي، مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاؤه، مصر .

١١- تفسير التستري: أبو محمد سهل بن عبد الله بن يونس بن رفيع التُستري (ت: ٢٨٣هـ =٨٩٦م): جمعها: أبو بكر محمد البلدي، تحقيق: محمد باسل عيون السود، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٣ هـ .

١٢- التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرءوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري المناوي (ت: ١٠٣١ هـ = ١٦٢٢م)، ط١، عالم الكتب ٣٨ عبد الخالق ثروت، القاهرة، ١٤١٠هـ-١٩٩٠م .

١٣- تفسير القرآن: أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (ت: ٢١١ هـ = ٨٢٧ م)، تحقيق: د. مصطفى مسلم محمد، مكتبة الرشد، الرياض، ١٤١٠هـ .

١٤- تفسير القرآن العظيم : إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (ت: ٧٧٤هـ= ١٣٧٣م)، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، ط٢، دار طيبة للنشر والتوزيع، ١٤٢٠هـ - ١٩٩٩م .

١٥- تفسير القرآن العظيم : عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (ت: ٣٢٧ هـ = ٩٣٨ م) تحقيق: أسعد محمد الطيب، ط٣، مكتبة نزار مصطفى الباز، المملكة العربية السعودية، ١٤١٩ هـ .

١٦- تفسير مقاتل بن سليمان: أبو الحسن مقاتل بن سليمان بن بشير الأزدي البلخى (ت: ١٥٠ هـ = ٧٦٧ م)، تحقيق :عبد الله محمود شحاته، ط١، دار إحياء التراث، بيروت، ١٤٢٣ هـ .

١٧ – تفسير يحيى بن سلام: يحيى بن سلام بن أبي ثعلبة التيمي بالولاء، من تيم ربيعة، البصري ثم الإفريقي القيرواني (ت: ٢٠٠ هـ = ٨١٥ م)، تحقيق: الدكتورة هند شلبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٥ هـ – ٢٠٠٤ م .

١٨- تنوير المقباس من تفسير ابن عباس: ينسب: لعبد الله بن عباس – رضي الله عنهما – (ت: ٦٨هـ): جمعه: مجد الدين أبو طاهر محمد بن يعقوب الفيروزآبادى (ت: ٨١٧ هـ = ١٤١٥ م)، دار الكتب العلمية، بيروت .

١٩- تهذيب اللغة : محمد بن أحمد بن الأزهري الهروي، أبو منصور (ت: ٣٧٠ هـ = ٩٨١م)، تحقيق: محمد عوض مرعب، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ٢٠٠١م .

٢٠- التوقيف على مهمات التعاريف: زين الدين محمد المدعو بعبد الرؤوف بن تاج العارفين بن علي بن زين العابدين الحدادي ثم المناوي القاهري (ت: ١٠٣١ هـ = ١٦٢٢ م)، ط١، عالم الكتب ٣٨ شارع عبد الخالق ثروت، القاهرة، ١٤١٠هـ- ١٩٩٠م .

٢١- جامع البيان في تأويل القرآن: محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (ت: ٣١٠هـ، ٩٢٣م)، تحقيق:أحمد محمد شاكر، ط١، مؤسسة الرسالة، ١٤٢٠ هـ – ٢٠٠٠ م .

٢٢- جامع البيان في تفسير القرآن (تفسير الإيجي): محمد بن عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله الحسني الحسيني الإِيجي الشافعّي (ت: ٩٠٥ هـ = ١٥٠٠م)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٤ هـ – ٢٠٠٤ م .

٢٣- الجامع لأحكام القرآن : أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (ت: ٦٧١هـ= ١٢٧٣م).، تحقيق:

هشام سمير البخاري، ط١، دار عالم الكتب، الرياض، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٣ هـ/ ٢٠٠٣ م .

٢٤- جمهرة اللغة : أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد الأزدي (ت: ٣٢١ هـ = ٩٣٣م)، تحقيق: رمزي منير بعلبكي، ط١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٨٧م.

٢٥- روائع التفسير (الجامع لتفسير الإمام ابن رجب الحنبلي): زين الدين عبد الرحمن بن أحمد بن رجب بن الحسن، السَلامي، البغدادي، ثم الدمشقي، الحنبلي(ت: ٧٩٥هـ=١٣٩٣م)، جمع وترتيب: أبي معاذ طارق بن عوض الله بن محمد، ط١، دار العاصمة، المملكة العربية السعودية، ١٤٢٢ - ٢٠٠١ م .

٢٦- صحيح البخاري (الجامع الصحيح المختصر من أمور رسول اللهﷺ وسننه وأيامه) :محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي (ت: ٢٥٦هـ = ٨٧٠م)، تحقيق: د. مصطفى ديب البغا، ط٣، دار ابن كثير، اليمامة، بيروت، ١٤٠٧هـ-١٩٨٧م .

٢٧- صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله ﷺ): مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري (ت: ٢٦١هـ .= ٨٧٥م)، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٢٨- الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية : أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري الفارابي :(ت: ٣٩٣ هـ = ١٠٠٣م)، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط٤، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤٠٧هـ - ١٩٨٧م .

٢٩- العين: أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري (ت: ١٧٠هـ= ٧٨٦م)، تحقيق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي، دار ومكتبة الهلال .

٣٠- غريب الحديث: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ= ٨٨٩م)، تحقيق: د. عبد الله الجبوري، ط١، مطبعة العاني، بغداد، ١٣٩٧هـ .

٣١- غريب القرآن: أبو محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة الدينوري (ت: ٢٧٦هـ= ٨٨٩م).، تحقيق: أحمد صقر، دار الكتب العلمية ١٣٩٨ هـ - ١٩٧٨ م .

٣٢- فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير: محمد بن علي بن محمد بن عبد الله الشوكاني اليمني (ت: ١٢٥٠هـ=١٨٣٤م)، ط١، دار ابن كثير، دار الكلم الطيب، دمشق، بيروت، ١٤١٤ هـ .

٣٣- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت: ٥٣٨هـ = ١١٤٣م) تحقيق: عبد الرزاق المهدي، دار إحياء التراث العربي، بيروت .

٣٤- الكليات : أبو البقاء أيوب بن موسى الحسيني الكفوي(ت: ١٠٩٤ م = ١٦٨٣م)، تحقيق : عدنان درويش – محمد المصري، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م .

٣٥- لباب التأويل في معاني التنزيل: علاء الدين علي بن محمد بن إبراهيم بن عمر الشيحي أبو الحسن، المعروف بالخازن (ت: ٧٤١هـ= ١٣٤١م)، تحقيق محمد علي شاهين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ .

٣٦- اللباب في علوم الكتاب: أبو حفص سراج الدين عمر بن علي بن عادل الحنبلي الدمشقي النعماني (ت:بعد ٨٨٠هـ=بعد١٤٧٥م)، تحقيق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود والشيخ علي محمد معوض، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٩ هـ -١٩٩٨م .

٣٧- لطائف الإشارات (تفسير القشيري) : عبد الكريم بن هوازن بن عبد الملك القشيري (ت: ٤٦٥هـ=١٠٦٩م)، تحقيق: إبراهيم البسيوني، ط٣، الهيئة المصرية العامة للكتاب، مصر .

٣٨- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز: أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (ت: ٥٤٢ هـ = ١١٤٨م)، تحقيق: عبد السلام عبد الشافي محمد، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢٢هـ .

٣٩- المحكم والمحيط الأعظم : أبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده المرسي (ت: ٤٥٨ هـ = ١٠٦٦م)، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤٢١هـ - ٢٠٠٠م .

٤٠- المستدرك على الصحيحين: أبو عبد الله الحاكم محمد بن عبد الله بن محمد بن حمدويه بن نُعيم بن الحكم الضبي الطهماني النيسابوري المعروف بابن البيع (ت: ٤٠٥هـ= ١٠١٥م)تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١١هـ- ١٩٩٠م .

٤١- مسند الإمام أحمد بن حنبل: أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (ت: ٢٤١هـ= ٨٥٥م)، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٤٢١ هـ - ٢٠٠١ م .

٤٢- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير: أحمد بن محمد بن علي الفيومي ثم الحموي، أبو العباس (ت: نحو ٧٧٠ هـ = نحو ١٣٦٨م)، المكتبة العلمية، بيروت .

٤٣- معالم التنزيل في تفسير القرآن (تفسير البغوي): أبو محمد الحسين بن مسعود بن محمد بن الفراء البغوي الشافعي (ت: ٥١٦هـ= ١٢٢٣م)، تحقيق :عبد الرزاق المهدي، ط١، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٤٢٠ هـ .

٤٥- معاني القرآن: أبو زكريا يحيى بن زياد بن عبد الله بن منظور الديلمي الفراء (ت: ٢٠٧ هـ = ٨٢٢ م)، تحقيق: أحمد يوسف النجاتي وآخرين، ط١، الدار المصرية للتأليف والترجمة، مصر .

٤٦- معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت: ٣١١ هـ = ٩٢٣ م)، ط١، عالم الكتب، بيروت، ١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م .

٤٧- معجم البلدان : شهاب الدين أبو عبد الله الرومي الحموي(ت: ٦٢٦هـ=١٢٢٩م)، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥م .

٤٨- معرفة اشتقاق أسماء نطق بها القرآن وجاءت بها السنن والأخبار وتأويل ألفاظ مستعملة: أبو بكر محمد بن عُزَيْر السجستاني رحمه الله(ت: ٣٣٠ هـ = ٩٤١م): تحقيق: د. جميل عبد الله عويضة، ١٤٢٩هـ/ ٢٠٠٨ م .

٤٩- مفاتيح الغيب = التفسير الكبير: أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري (ت: ٦٠٦هـ=١٢١٠م)،ط٣، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٢٠ هـ .

٥٠- المفردات في غريب القرآن: أبو القاسم الحسين بن محمد المعروف بالراغب الأصفهانى (ت:٥٠٢ هـ = ١١٠٨ م)، تحقيق: صفوان عدنان الداودي، ط١، دار القلم، الدار الشامية - دمشق بيروت، ١٤١٢ هـ .

٥١- مقاييس اللغة: أحمد بن فارس بن زكرياء القزويني الرازي، أبو الحسين: (ت:٣٩٥ هـ = ١٠٠٤م) تحقيق: عبد السلام محمد هارون، دار، بيروت، ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م.

٥٢- نظم الدرر في تناسب الآيات والسور: إبراهيم بن عمر بن حسن الرباط بن علي بن أبي بكر البقاعي (ت: ٨٨٥ هـ = ١٤٨٠ م)، تحقيق: عبد الرزاق غالب المهدي، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥هـ - ١٩٩٥ م .

٥٣- النكت والعيون (تفسير الماوردي): أبو الحسن علي بن محمد بن محمد بن حبيب البصري البغدادي، الشهير بالماوردي (ت:٤٥٠هـ = ١٠٥٨م).، تحقيق: السيد ابن عبد المقصود بن عبد الرحيم، دار الكتب العلمية، بيروت .

٥٤- الوسيط في تفسير القرآن المجيد: أبو الحسن علي بن أحمد بن محمد بن علي الواحدي، النيسابوري، الشافعي (ت: ٤٦٨ هـ = ١٠٧٦ م)، تحقيق وتعليق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود وآخرين، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٥ هـ - ١٩٩٤ م .

ثانيًا : المَراجِع

٥٥-التحرير والتنوير «تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت: ١٣٩٣ هـ = ١٩٧٣م)، دار سحنون للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٧م .

٥٦- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت: ١٣٦٢هـ= ١٩٤٣ م)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي، المكتبة العصرية، بيروت .

٥٧- في ظلال القرآن: سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (ت: ١٣٨٥هـ=١٩٦٦م)، ط١٧، دار الشروق، بيروت، القاهرة، ١٤١٢ هـ .

٥٨- المعجزة الكبرى القرآن: محمد بن أحمد بن مصطفى بن أحمد المعروف بأبي زهرة (ت: ١٣٩٤هـ=١٩٧٤)، ط١، دار الفكر العربي، ١٣٩٠هـ= ١٩٧٠م.